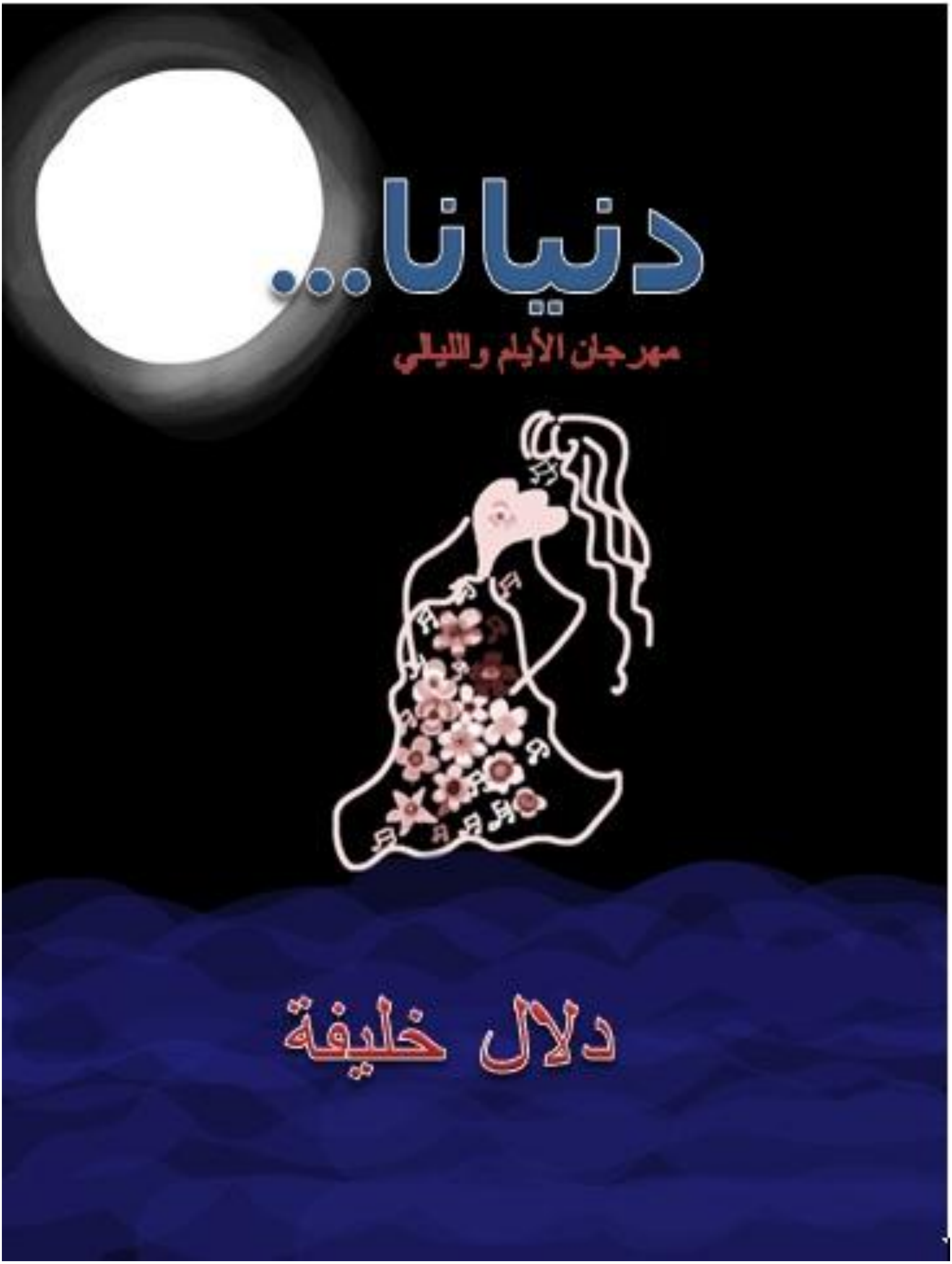
دنيانا..
مهرجان الأيام والليالي
دلال خليفة

دنيانا... مهرجان الأيام والليالي

رواية

دلال خليفة

الطبعة الثانية ٢٠١١

الناشر دار الثقافة للطباعة والنشر

غلاف وإخراج: المؤلفة

صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠

ناشر الطبعة الأولى إدارة الثقافة والفنون والتراث

جميع حقوق الطبع محفوظة

طبع في دار الثقافة للطباعة والنشر ببيروت

دنيانا..

مهرجان الأيام والليالي

(رواية)

دلال خليفة

مقدمة حول لغة الحوار

أجبرتني بعض شخصيات الرواية مثل نَيْلة وراشد ومريم على استخدام اللهجة العامية هذه المرة لأن العربية الفصحى لم تناسبها كثيراً، لذلك - ولأول مرة منذ بدأت الكتابة -ارتأيت أن أجرب استخدام العامية الخليجية في الحوار، وقد راعيت في كتابتها أن أكتب الأحرف التي تبدل إلى أحرفٍ أخرى على طبيعتها العربية مثل كاف المخاطب للمؤنث التي تلفظ ch كما في كلمة cheese الانجليزية والتي يحاول كثير من الكتاب التعبير عنها بالجيم أو الجيم بثلاث نقط، ولكني فضلت كتابتها كافاً كأصلها العربي، وللقارئ الخليجي أن يقرأها كما تلفظ في الخليجية تماماً دون أن يلتبس الأمر على غير الخليجي ويظن أنها كلمات أخرى لا يعرف معناها، وكذا الحال بالنسبة لباقي الأحرف التي تلفظ بشكل مختلف في اللهجة الخليجية مثل الجيم التي تنقلب في بعض الأحيان إلى ياء والقاف التي تلفظ قافاً في كلمات مثل "يقدِّر" وجيماً في كلمات أخرى مثل "قدّام" كما تلفظ مثل الجيم المصرية في فئة ثالثة من الكلمات مثل "قال"، كلها مكتوبة بأحرفها الأصلية وعلى الخليجي أن يقرأها بلفظها الخليجي ليستمتع بالبعد الواقعي الخليجي فيها.

أما النقص أو الزيادة في الأحرف تبعاً للهجة الخليجية فقد تغاضيت فيه لأنه يحتفظ للكلمة بشكلها العام المعروف في العربية فلا يلتبس الأمر على القارئ العربي، وعموماً فقد حرصت على عدم استخدام الكلمات الغريبة على غير

الخليجي إلا فيما ندر وفي هذه الحالة حرصت على كتابة مرادفات لها في السياق نفسه بحيث تفهم في النهاية من السياق فقط وذلك تجنباً لعمل حواشي تخرج القارئ من جو الرواية.

هذه تجربة لأسلوب جديد في كتابة العامية الخليجية لا أعرف إن كان هناك من سبقني إليه، والهدف منه إضفاء المذاق الخليجي دون تشويه لهجته بإخراجها من أصلها العربي.

وبالمناسبة فاسم نَيْلة يكتبه البعض نجلاء والبعض نائلة وفق تفسيرهم الخاص لمعناه وأصله العربي، ولكني أكتبه هنا نَيْلة كما يلفظ في الخليج تماماً لأني وجدت له أساساً في العربية الفصحى، إذ يعني المكسب الذي يناله الإنسان، وبهذا يكون الاسم الخليجي مرادفاً تقريباً لاسم "منال" المعروف في الدول العربية الأخرى، وتمسكت بهذا المعنى - وأرجو ألا أكون مخطئة- لأنه المبرر الوحيد لكتابة هذا الاسم الخليجي اللطيف كما يلفظ تماماً.

المؤلفة

دنيانا

١

كالأنغام الصاخبة

نتدافع كالأنغام الصاخبة، نتصادم كمفردات اللحن النشاز، ثم كالنغمة الحالمة نتماشى جنباً إلى جنب إذا ما ائتلفنا...

كل هذا في دنيانا الواسعة هذه، التي تموج بكل شيءٍ لأنها مليئةٌ بحميم بركانٍ دائم الغليان اسمه الحياة، مليئةٌ حتى ليكاد قسمٌ من هذه الحياة يفيض خارجاً منها ليتدفق في بقايا الكون...

الحياة المتأججة تجعل الدنيا خِضَمّاً هائلاً متلاطمَ الأمواج من الناس والأشياء والأحداث.. وكلّ ما فيه يجري بلا هوادة، الزمن يجري بساعاته وكأن كلّ منها تلهث خلف الأخرى لترى أين ذهبت ثم تقع خلفها في هوّة الزمن المليء بالأشياء المنسية والمطموسة المعالم.. والناس يجرون وكأنهم يستعدون ليوم الحشر، والأحداث لا تكاد تبدأ حتى تنتهي، ولا شيء يتوقف إلا ليجري سريعاً إلى عالمٍ آخر يمنح الأشياء لقب "ماضي".. ولا بديل للجرْي، فالحياة المتأججة تلهب سياطها على عنق كلّ شي...

في هذا البحر المتلاطم الأمواج تبدو الأشياء عشوائيةً، وتبدو الأحداث كالصُّدف... الناس يصطدمون ببعضهم بعضاً أثناء جريهم، والأحداث تتزاحم فتتخلّل بعضها بعضاً، وكلها أبعد ما تكون عن الصّدف مع أننا نراها كذلك، وكل الناس يرونها كذلك لأنهم لا يتوقفون عن الجري، وبعضهم لا يأبهون لشيءٍ، وإن كان هذا الشيء متربصاً بهم...

هند تضحك بمرحٍ أثناء مرورها بكثيرٍ من هذه الأحداث، لأنها كبقية الناس تؤمن بالصّدف ولا تبالي كثيراً. يرضيها شعورها أنها متوسطة الجمال ومتوسطة الذكاء والطول والرشاقة والغِنى وكل شيءٍ ولا تلهث خلف أي شيء وراء ذلك، لأنها ترتضي أن تكون عاديّةً تضحك ملء فمها وهي تشاهد الرسوم المتحركة كالأطفال ولا تعلم أن للقدر أصبعاً يتتبع بعض الناس ببصمته الخاصة التي يخفيها عن معظم الناس. ولكن حتى "بعض الناس" أولئك كثيراً ما تفوتهم آثار تلك البصمة..
ترى هل يشعر بها أمثال هند أحياناً؟ هل تشعر بها في هذه اللحظات؟

* * *

الطفلة تتسكّع حائرة، لا تدري ماذا تفعل... يأتي أخوها الذي يصغرها بثلاث سنواتٍ فيدفع بها من الخلف، لكنها لا تأبه له. يأتي إليها ثانيةً فتبعده عنها، لا تريد أن تتشاجر، لا تريد أن تتشاجر! تريد أن تفعل شيئاً، أن تلعب لعبةً مسلية، الشِّجار لعبةٌ جميلةٌ **فقط** عندما لا يكون لدينا أيّ شيءٍ نعمله، عندما تصبح رؤوسنا خاليةً تماماً من الأفكار الجميلة.

تفكّر وتفكر ولكنها لا تستقرُّ على رأي، تتنهد وتجلس على الأريكة، تتكئ على يد الأريكة وتسند رأسها بيدها..

يأتي صوت أخيها من الغرفة المجاورة يركض ويصدر صوتاً كصوت بوق السيارة. إنه الآن سيارة. منذ عشر دقائقٍ كان سمكةً تسبح على الأرض حتى تَهَلْهَل منظر السجادةِ الحرير الجميلةِ التي تحبّها أمها. من الممتع أن يكون الإنسان سيارةً أحيانا أو سمكةً ولكنها الآن تريد أن تلعب شيئاً آخر..

* * *

٢
نقطة التقاء

الشمس متماديةٌ في الإشراق في دنيانا هذه اللحظات، والكون يبدو شديد الوضوحِ تحت أشعتها القوية، فجميع العقارب في معاصم السائقين في شارع السد تشير إلى الواحدة إلا ربعاً. هناك كان الطابور الصغير يضم خمس سيارات. السيارات مختلفة الأشكال والألوان ولكن كان يربط بين راكبيْ آخر سيارتين أشياء كثيرةٌ غير وجودهما في تلك اللحظة في شارعٍ واحد، وغير كون ذهن كل منهما مشغولٌ وجسده مرهق وهو في الطريق إلى البيت بعد أن أنهى عمله اليومي في تلك الظهيرة..

من القطيع الكبير تبرز بضع شخصيات، اثنان منها هما الجالسان في آخر سيارتين في الطابور أمام الإشارة الحمراء في ذلك اليوم. فهما من الذين يحاولون اتخاذ مسارٍ آخر غير مسار بقية القطيع، لا حباً في المخالفة وإنما حباً في التطور إلى الأفضل، وللأفضل أشكال مختلفة لديهم...

هواء مكيف السيارة يتجه بقوة خلال الفتحة الفاصلة بين المقعدين الأماميين فيؤرجح الصفحة العاشرة بالدفتر الذي تركته هند مفتوحاً عليها، الصفحة المتأرجحة كُتب عليها:

* التاء المربوطة (هام جداً)

* التفريق بين حرفي الظاء والضاد في الكتابة واللفظ (هام جداً جداً)

هذا لأن الأفضل لدى هند مدرسة اللغة العربية هو طالباتٌ لا تواجههن مشاكل في نطق وكتابة الأحرف العربية، ويعرفن على وجه الخصوص متى يربطن التاء وكيف يفرقن بين الظاء والضاد. وهي تسعى إلى ذلك، وتنام وتصحو مع هذه الفكرة.

أما ماجد صاحب السيارة الأخرى فالأفضل لديه بيئةٌ نظيفةٌ تزينها الخضرة وتسود فيها قوانين الطبيعة دون أن تعرقلها أو تشاغبها اليد الإنسانية الجائرة .. بيئةٌ لا تستخدم فيها الأكياس البلاستك التي يصعب على الأرض امتصاصها فيما بعد، ولا يلوِّث فيهُا الهواء الجوي، ولا يُخرِّش الأوزون بالمبيدات الحشرية وغيرها من المواد المعبّأة بالضغط في الأوعية البخاخة. وعندما ينام يحلم بوسائل جديدة لإقناع الناس بما يراه.

الباقون لا يهتمون بنطق وإملاء الأجيال الجديدة ولا يهتمون بالبيئة إلى درجة الخروج على المألوف، لذلك فقد خرج هذان الاثنان كلٌ على حدةٍ يجوبان آفاقاً غير موطوءةٍ في أحراش المجهول.

سيارةٌ خضراء؟ سيارةٌ خضراء ثانية؟؟ من يشتري سيارةً خضراء؟ كيف توجد سيارةٌ خضراء غير تلك التي كان رقمها ثمانية تسعة عشرة، هكذا قرأته عندما رأته ولهذا لم تنسه، ووجدته مميزاً جداً. وهي الآن تشعر برغبةٍ في معرفة رقم السيارة الخضراء الثانية التي أمامها إذ هما في الطابور الصغير، فلربما كان للسيارات الخضراء أرقامٌ نادرةٌ دائماً.

وتنطفئ الإشارة الحمراء وتلمع الخضراء فتتحرك السيارتان إلى جهتين مختلفتين. عندما اتسعت الفجوة بين السيارتين رأت هند رقم السيارة الخضراء التي كانت تقف أمام سيارتها وابتسمت لنفسها، لقد كان ٨٩١٠! لاحظته لأنه سهلٌ ومألوفٌ إلى حدٍ ما، أو على أقل تقديرٍ لم تكن تلك أول مرةٍ تراه فيها. لقد رأته من قبل.. منذ بضعة أشهرٍ في لوحة سيارةٍ خضراء، لم تكن تلك سيارةٌ خضراء أخرى إذن وإنما هما واحدة. لقد كانت في المرّة الأولى واقفةً بلونها الغريب ذاك بلا سائقٍ وقد أصيبت مؤخرتها باعوجاج بسيط، وخلفها سيارة رحلاتٍ أقل هيبةٍ تناسب شاباً في الثامنة عشرة من عمره وقد خلت هي أيضاً من سائقها. وأُبقيت هيَ في الطريق ما لا يقل عن عشر دقائق بسبب تلك الحادثة، في تلك العشر دقائق قرأت ذلك الرقم ورأت سائقي السيارتين. أحدهما أربعيني بدينٌ يتحدث مع الشرطيِّ باهتمامٍ والآخر شابٌ نحيفٌ يبدو على مشارف العشرين، مرتب الهندام بشدة، يمشي جيئةً وذهاباً بقلقٍ وهو ينظر إلى هذه السيارة تارةً، وتلك تارةً وإلى الشارع تارةً من

خلف نظارةٍ شمسيةٍ سوداء تعكس كل ما يقع في مجالها من صور. ولم يكن لدى هند شكٌ في أنه صاحب سيارة الرحلات، وأنه من تسبب في الحادثة، فهو صغير السن وقد لا تكون لديه رخصة أصلاً. حتماً كان يستحق ذلك القلق الذي ظهر على وجهه، لأنه المتسبب بطيش الشباب في تلك الحادثة. ثم تحرك المرور مخلفاً وراءه سيارتي الحادث وسائقيهما، وتاهت تلك الحادثة وسط موكب أحداث الماضي القريب التافهة...

ولكن ها هو ذلك الرقم الذي لا ينسى أمامها. واستكمالاً لأطراف ذكرى الحادثة يدفعها الفضول إلى النظر إلى ذلك الشخص البدين الذي كان يتحدث مع الشرطيِّ باهتمامٍ يوم الحادثة، ولكن.. لم يكن الوجه الذي رأته لمحةً واحدةً سريعةً عندما استدارت السيارة وجه ذلك الرجل، بل كان وجه الشاب الذي كانت تظن أنه من صدمه من الخلف وعلى عينيه تلك النظارة الداكنة. إذن فالسيارة الخضراء المصابة كانت سيارته هو.. ارتفع حاجباها دهشةً ثم عادا، وعضّت على شفتها السفلى وهي تنكِّس رأسها إذ خالجها لحظةً شعورٌ بأنها ظلمت ذلك الإنسان. لقد اتهمته أنه من تسبب في الحادثة من دون دليل إلا صغر سنه، ولكن ها هو اليوم يظهر أمامها ليقول من بعيدٍ إنها كانت مخطئة..

الآن تبدو الأشياء أكثر منطقية، فملابسه ومظهره عموماً لا يتناسب إلا مع السيارة الشبح الخضراء.. وإن كانت مصابة من الخلف. ثم انتهت لحظة الندم سريعاً باختفاء السيارة من أمام ناظريها إذ اتخذت مساراً آخر، وعاد كل شيءٍ إلى طبيعته ثانيةً لتتوه تلك اللحظات أيضاً في موكب أحداث اليوم.

الزمن اللانهائيّ ليس ساعةً رمليةً واحدةً بل ساعاتٍ متصلة بها مضايق ومتسعات تتكرر وتتكرر ولا تنتهي. حباتها تتزاحم عند المضايق حتى تلتقي ثم تبتعد عندما

تتساقط وتتفرق في المناطق المتسعة. ثم تبدأ رحلتها من جديد. قد تلتقي في المضيق القادم وقد لا تلتقي.. إلا إذا كان قدرها أن تلتقي. ونحن أحياناً حبات رمل هذه الساعة اللانهائية، تجمعنا المضايق وتفرقنا المتسعات إلا إذا حرصنا على عدم التفرق، عندئذٍ.. قد!

قد ننتصر على قوة التدفق القسري...

وهذان شخصان جمعهما مضيق الساعة برهةً ثم انطلق كل منهما إلى سبيله، إلى عالمٍ واسعٍ ليس فيه للآخر أثر، وإن كان به مكانٌ شديد الاتساع للمجهول وللقدر، ولأشياء كثيرةٍ غير متوقعة، ولأشياء أخرى كثيرة يريد أن يبتنيها في مجاهل عالمه التي لم يطأها بعد...

٣

المشهد

في عالمها أخذت هند تخلع كل ما يضايقها من الملابس التي كانت ترتديها وشعرت بشيءٍ من الراحة في الثوب الفضفاض الذي أصبحت فيه. وألقت بالساعة أمام المرآة وأصبح شعرها الحريري منسدلاً على كتفيها، وتنفست بعمق وارتياح. لكم تحب الراحة والانطلاق، ولكم تستمتع بأبسط الأشياء المريحة مثل خلع الحذاء. لم يبق أمامها إلا أن تصلّي ثم تذهب لتناول الغداء مع الجميع. وبعدها تدخل إلى مرحلةٍ أخرى بها مزيدٌ من الراحة حتى تبدأ في الساعة التاسعة مرحلة العمل الأخرى الأكثر إملالاً؛ مرحلة تصحيح دفاتر طالباتها التي تحتاج منها إلى صبرٍ بالكاد تمتلكه. ولكنها خارج تلك الفتاتة الزمنية المثيرة للأعصاب تتنفس بعمقٍ وتبتسم متى شاءت لأنها تتعامل مع نفسها بلينٍ ورحمةٍ تجعلها تحتمل مضايقاتٍ كثيرةٍ في دنياها هذه.

حذفت هند الدفتر الثالث على الأرض قرب المكتب إذ كانت تعيش الفتاتة الزمنية العصيبة وعندئذٍ دخلت عليها والدتها وأخذت تلتقط الدفاتر من الأرض ومن ثم وضعتها على المكتب ثانية.

ما توّبين عن هالجنون؟ ليش تسوين هالشكل؟

باسوي هالشكل لحد ما يتعلمون يفرقون بين التاء المربوطة والمفتوحة.

العوذ بالله من الشيطان الرجيم..

يمه هذي مب سحر، هذي شي لازم يتعلمونه!

علميهم!

وتتوقف هند وتنظر إلى أمها بتحفزٍ ثم تتنفس بعمقٍ قبل أن يندلع صوتها المليء بالغيظ:

من قال لك إني ما علّمتهم؟ شرحت لهم الفرق ألف مرة.

ما عليه، همه صغار مساكين.

وتكاد هند تنفجر غيظاً:

يمه، من فضلك إذا ما تبين تأيديني، على الأقل لا تدافعين عنهم قدامي!

تخرج الأم وهي تقلّب كفيها في استياء وحيرة، وينطلق خلفها صوت ارتطام الدفتر الرابع بالأرض، فتتأفف.

هالبنت ما ادري اش فيها، ما لها خلق على شي..

اعذريها يا مريم، شغلها صعب..

وتنظر مريم بتحفزٍ إلى زوجها ثم يندلع صوتها:

إذا ما تبي تأيدني، لا تدافع عنها قدامي!

ثم ترسل له نظرة أخرى:

كِلَّه منك، انت خرّبتها من كثر ما تدافع عنها، اتمنى مرة... مرة واحدة بس عن خاطري أقول لك عنها شي وما تدافع.

وفي الحال تتدافع حبّات المسباح المتّخَذة من خشب الصندل بخشونةٍ بين أصابع راشد المتمرسة في فنون اللعب بالخرز. يعلم أنه مخطئٌ ولكن ما دام الأمر متعلقٌ بهند فهو لا يستطيع إلا أن يدافع. يصمت ثم يدخل في موضوعاتٍ كثيرةٍ حتى تقارب الساعة العاشرة مساءً. بعد قليلٍ سمعا صوت الباب ينفتح بدفعةٍ لامباليةٍ ودخل سعد بثياب الرياضة وحقيبة النادي المنتفخة، فاستغرب الوالد:

ليش تأخرت اليوم، ما قلت لك لا تتأخر؟

نسيت.

نسيت؟ ليش تنسى كل يوم؟

عندما رأى سعد التعبير المستاء في وجه والده انصرف بعضٌ من اللامبالاة عن وجهه وأخذ يشرح لوالده ظروف تأخُّرِه. وما إن بدأت أمه تعينه بالأعذار حتى اقتلع راشد السماعة من أذنه بعصبيةٍ ووضعها في جيبه ووجّه بصره إلى شاشة التلفزيون، هذا الولد متعبٌ ولا يعرف كيف يربّيه. يبدو أنه كبر كثيراً والفجوة العمرية بينهما لا تؤهله للتعامل معه. أشار سعد إلى والده وهو يلتفت إلى أمه.

شفتي؟ كالعادة، يقول اللي يبيه ويشيل السماعة من اذنه اذا ما عجبه الكلام؟ هذا مب ظلم؟

أسكتته والدته وجرته إلى المطبخ لتضع له شيئاً من الطعام، أما الوالد فقد أعاد السماعة إلى أذنه ثانيةً ليسمع ما يقوله المذيع، ففي الغد سيأتي فيصل ولده الكبير وأسرته، وسيتناقش معه فيما سمع.

كان هناك الشعور المألوف بالذات، الذات ذات هند ولكنها ذاتٌ أخرى لا تنتمي للساعة ولا للماضي، فهذا الشعور الذاتي له متعلقاتٌ أخرى لم تألفها أبداً..

والمنزل منزل هند، هكذا الشعور تجاه المكان، ولكنه ليس منزلها

الذي تعرفه. والذات تنفجر ضاحكةً هي وطفلٌ وذاتٌ أخرى كبيرة، وأغرب ما في الصورة هو أن الذات الأخرى الكبيرة لها وجهٌ رأته في ذلك اليوم في الشارع، وجه ذلك الفتى الذي رأته مرتين واتهمته في أولاهما زوراً بسوء القيادة..

انتهت اللحظة واختفى الموقف...

نفضت هند رأسها دهشةً وأخذت تتساءل في نفسها عن كُنْهِ ذلك المشهد الذي برز لها هكذا من العدم وبلا مقدمات، لماذا شعرت به؟ ما هو؟ ولماذا توجد مع ذلك الشاب الذي لا تعرفه في البيت؟ ولكنه ليس البيت..

ولماذا تضحك معه بلا تحفظ وتشعر إزاءه بأنه أحد أفراد أسرتها المقربين؟ ما هذا الهراء الفكري؟ هل سببه شعورها بأنها أذنبت في حقه؟

تنهدت وظهر عليها التعب، لقد كان دماغها مرهقاً من التصحيح والتدقيق. ألقت بالقلم الأحمر وأغلقت الدفتر المفتوح أمامها ونهضت من مجلسها ذاك وتوقفت عن التفكير في الطّيْف الذي شعرت به.

ماجد يدخل عالمه المتركز في غرفته ويلقي بمفاتيحه على المكتب ثم يخلع غترته وعقاله ويضعهما على الكرسيِّ أمام المكتب. ثم قبل أن يخلع ثوبه يلقي نظرةً إلى صورةٍ كبيرةٍ كالملصق بالحجم الكامل لفتىً جالسٍ القرفصاء في ملعب كرة قدمٍ وأمامه كرةٌ يمسكها

بشغفٍ وهو يبتسم للمصور ابتسامةً مشرقة. الوجه وجهه، والصورة تبدو وكأنها صورته عندما كان في الخامسة عشرة. ينظر إليها في شيءٍ من المودّة ثم يختفي رأسه داخل الثوب قبل أن يُلقي به على السرير. ثم ينتقل بصره إلى الجدار الآخر فيتأمل صورةً أخرى نصفيةً أصغر حجماً تبدو له أيضا وهو في مرحلةٍ أصغر من العمر، ويتنهد ثم يواصل تغيير ملابسه في عالمه المليء بتلك الصورة التي تظهر له أيضاً متى ما نظر إلى المرآة، فيحدّق في المرآة وكأنه يبحث في أعماقها عن صورةٍ عميقةٍ جداً يريد أن يصل إليها ويتملّى منها، ولكنها دائماً تهرب منه وتتركه حائراً..

يأتيه صوت أخيه ابراهيم من وراء الباب نصف المفتوح برنّته المرحة المعتادة يناديه لتناول العشاء، ثم صوت خطواته الخفيفة وهو ينزل إلى الطابق الأسفل. يلحق هو بأخيه بثوب البيت الأزرق ذي الأكمام القصيرة، ثم ينضم إلى باقي الأسرة، ابراهيم ووالديه. لم يبق غير هؤلاء الأربعة بعد زواج البنتين، ومع ذلك فالأم تتحدث عن رغبتها في تزويج ماجد أيضاً منذ عام.

عندما دخلت هند إلى غرفتها في منتصف الليل استخرجت صندوقاً جميلاً محاطاً بالدانتيل من الخزانة ووضعته أمامها على المكتب، فغداً يوم جمعة، والجمعة يومها الخاص الذي لا تسمح لأحدٍ أن ينتزعه منها والذي تزيح فيه دفاتر الطالبات جانباً لتتوغل في دنياها الخاصة، وابتسمت لمرأى الصندوق، غداً يوم جمعة وفي ذهنها قصيدة... كل ما في الروايات والأفلام يدلّ على أن هناك شيئاً اسمه الحب، وهي تحب أن تكتب قصائد كثيرةً معظمها في هذا "الحب" الذي لا تعرف كنهه، إلا أن رغبتها في أن يكتمل وجودها الإنساني بآخر تحبه تدلّ على وجوده. وبما أنه لم يكن ثمة من تحب

فقد اختلق خيالها منذ الحداثة حبيباً له صفاتٍ ولكن ليس له ملامح محددة إذ أنها تتغيّر بتغيّر رؤيتها للجمال. تلك القصائد تكتبها لذلك الإنسان الذي ليس له وجهٌ خاص. طوله وحجمه وهيئته العامة لا تتغير ولكن ملامحه غير واضحةٍ على الإطلاق؛ إذا اتضحت العينان والأنف غَمُض الفم والأذنان، وإذا اتّضحت الشفتان ضاعت العينان. ولكنها تستطيع أن تتعايش مع هذه الصورة المبعثرة، وتستطيع أن تكتب لها شعراً وتحتفظ به في الصندوق الجميل إلى أن يظهر صاحبها المجهول.

٤

بين الغزلان النادرة التي يخشى عليها من الانقراض

قعر القصة لم يعرفه أحدٌ بعد، ولكنه تكوَّن هناك حيث كانت امرأتان تتحدثان. جلست المرأتان في ذلك العمق الزمني تتبادلان حديثاً ودياً هادئاً بعد أن فتحت إحداهما الستار الذي يفصل بين سريريهما بمستشفى الولادة. في حجر كلٍّ منهما وليد. تبدوان متقاربتين في السن وتبدو كلٌ منهما سعيدةً بما لديها. مريم تُرضع طفلتها التي أسمتها هند، وشيخة ترضع طفلها الذي أسمته ماجد، وعندئذٍ أسدلت الممرضة الستار ثانيةً إذ قدم زوج مريم يزور زوجته وابنته ذات اليومين. وبرزانته المعهودة خارج المنزل أخذ يداعب وجه ابنته الغض. لقد كان سعيداً بها رغم أن وجهه لم يعبّر بأكثر من ابتسامةٍ رزينةٍ تناسب مكاناً شبه عامٍ كالمستشفى. وبدا كأنه جدها أو عمها الكبير أكثر من أبيها إذ كان في أواخر أربعينياته بينما زوجته في مستهلّ عشرينياتها.

وبعد قليل دخل زوج شيخة. لمحه راشد طيفاً أبيض يمرّ سريعاً ولم يتعرّف عليه. لم يتح له أن يشاركه أصباحاً وأمسياتٍ كما فعلت امرأتاهما. جلس هذا بملابسه الفاخرة على طرف سرير زوجته وكان صوته يصل همهمةً واضحةَ النبرات من وراء الستار. بعدها

بأيامٍ عندما جاء موعد مغادرة مريم سلّمت على شيخة وتبادلتا العناوين والوعود بالاتصال القريب والدائم وكل منهما تكاد تُجزم أنها لن تحاول. وبالفعل لم تجمعهما الوعود المشتركة ثانيةً حتى طال الأمد وتجاوز العشرين عاماً.

هل كان ذلك اللقاء في مستشفى الولادة ما أشعر هند أنها تعرف ماجد عندما رأته في رحلة الطالبات إلى دخان؟ لقد شعرت بنوعٍ من الألفة عندما التقت أنظارهما. كان واقفاً مع بعض الأشخاص يشرح للطالبات (أو لها على وجه الخصوص) أشياء عن إعادة تصنيع الورق. كان يبدو عليه أنه بالكاد قد تجاوز سن الحداثة، ولولا أن حديثه المهني يشير إلى أنه خريج جامعةٍ لما اقتنعت أنه لابدّ أن يكون قد وصل إلى سن الواحد والعشرين على أقل تقدير. لم يكن وجهه غريباً عليها. ولو أنها رأت سيارته الخضراء ذات الرقم المميز وهي واقفة باطمئنانٍ خلف المبنى لتذكرت وجه صاحبها. ولكنها لم تفعل لأن سائق الباص أنزلهن من أمام المبنى. بل لو أنه كان مرتدياً نظارته الشمسية الفاخرة العاكسة لكل شيءٍ لتذكرته في الحال وتذكرت أنه بطل يوم الحادثة وطابور الأمس الصغير. كان ثوب ذلك الشاب ناصعاً بشكلٍ مبالغٍ فيه، وكان يبدو مرتباً بشكلٍ مخيف. هل يستطيع صاحبه الواقف إلى جانبه أن يمزح معه فيجرّه من كُمّه أو يخبطه على ظهره وهو يرتدي هذه الملابس التي لا توجد بها كسرةٌ ولا أثرٌ لأيّ دنس؟ صاحبه يبدو إنساناً طبيعياً كوالدها عندما شاخ، أكمامه ليس لها أزرار وثوبه مكويٌّ بشكلٍ طبيعيٍّ وبياضه أقل من بياض ثوب الآخر.

وفجأة شعرت هند بالحرج عندما رأت ماجد يكلّمها، وتمنت لو أنها لم تنس عليها حذاء الرياضة الذي تحتفظ به في المدرسة وتلبسه للمشي في أوقات الفراغ، ولكنها

كانت تنساه عليها لأنّه لا يهمها أن يرنّ الجرس فتدخل به على طالباتها، لا يهمها أن تبدو ممشوقة القوام أمامهن، لذلك فقد تركته عليها عندما جاءتها سارة ترجوها أن تصحبها في رحلة الطالبات لأن مدرسة العلوم الأخرى غائبة. ولكن هناك كان الأمر مختلفاً خاصةً بجانب صديقتها التي لا تخلع حذاءها الأنيق أبداً في المدرسة، والتي جددت زينتها قبل أن تركب الباص...

لم تنظر هند إلى قدميها لتتذكر الحذاء ولكنها شعرت فجأة بهما وهما تربضان كبطّتين كسولتين في فردتي الحذاء القبيح المصنوع من القماش الأبيض والمطاط، وشعرت بحرارة الخجل تجتاح وجهها. كما شعرت أنها ليست جميلةً وأنها ليست مكتملة الأنوثة كصديقتها. وعندما لاحظت أنه يكلمها هيَ ويوجّه إليها اهتمامه بدلاً من سارة مدرسة العلوم عزت ذلك إلى أنه يخشى على نفسه من الفتنة. وعندما تحرك الباص عائداً إلى المدرسة شعرت أن في لقائهما شيئاً مبتوراً، وشعرت برغبةٍ مبهمةٍ في أن يجمعها به الزمن في مكانٍ آخر تستطيع أن تسأله فيه لماذا أهمل صديقتها الكاملة الزينة وركّز عليها.

الساعة الزمنية تجمعهما في أماكن غريبة وتفرقهما وهما لا يعلمان شيئاً سوى أنهما قد يلتقيان ثانيةً في المستقبل. ماجد أيضاً شعر أنه يُحبّ أن يلقاها بشكلٍ ما في المستقبل. لقد سكنت مخيّلته بخدّيها المتوردين وبابتسامتها العذبة الدائمة وتلقائيتها، وبحذائها المصنوع من القماش والمطاط. لقد بدت له أكثر انتماءً للأرض من زميلتها. كانت زميلتها جميلة الشكل أيضا والهندام وربما أكثر أناقة، ولكن كان بها شيءٌ يبعدها عن الأرض التي يعشق. لقد وقفت هناك تحاول أن تتوارى حياءً بشكلٍ غريب. لقد

تسلّحت بكل ما هو جميلٍ من الغرّة المتماوجة المختلفة الألوان والمطلّة من غطاء رأسها، إلى الوجه المتكامل الزينة، حتى القدمين اللتين انسابتا باستسلامٍ للجورب الأسود الشفاف والحذاء اللامع. ثم ها هي تتوارى خلف كتف زميلتها وتحاول الاستماع إلى ما يقول بعينيها الخجولتين، هل هذا خجلٌ أم إحساسٌ مبالغٌ فيه بوجود رجلٍ على مقربةٍ منها؟ لماذا هذا الإحساس المبالغ فيه بوجوده هو وزميليه؟ ألم تر رجلاً من قبل؟ أما الأخرى فكانت واقفةٌ تسأل عن الأشياء باهتمامٍ وتلقائية، وتستأذن بين الفينة والفينة في مقاطعته لتسأل الطالبات إن كنّ قد فهمن ما قاله. وكانت الابتسامة التلقائية لا تكاد تفارق شفتيها..

بريئةٌ كالأطفال.. انجذب لها كثيراً، شيءٌ ما فيها يقرّبها إلى الطبيعة ومن ثَمّ إلى نفسه. وعندما خطت خارج القاعة عاد سريعاً إلى مكتبه مع أنه كان يريد الوقوف أمام الباب الخارجيّ ليراها مرةً أخيرةً قبل أن تغادر. ثم جلس أمام مكتبه مفكراً. وفي لحظة فراغٍ ذهنيٍّ تامٍّ إلا من شيءٍ واحدٍ تراءى له أنه رآها قبل ذلك، وأنه سيراها بعد ذلك إن كان في العمر بقية...

مرت أيامٌ وأشهرٌ وهذه الفتاة تجري في الغابات الخضراء، وفي المروج المزهرة بين الغزلان النادرة والتي يخشى عليها من الإنقراض، تجري بحذائها المريح ذاك وبثوبٍ حريريٍّ ينساب بنعومةٍ على جسدها، وعلى ثغرها ضحكةٌ مرحةٌ وفي خدّيها توردٌ جميلٌ، وفوق كتفيها وفي الهواء تتمايل خصلات شعرها الخالي من الأصباغ. وظلت تجري وتجري. تجري تارةً مارةً به فتلتفت إليه ثم تكمل طريقها، وتارةً نحوه، ولكنها لا تصل إليه ولا يصل إليها..

لكم تاق إلى رؤيتها ثانيةً. لكم أحبها صورةً جميلةً ليس إلا، وتمثّلها طيفاً جميلاً يحب أن يراه بين الفينة والفينة، يراه فقط ويبتسم لمرآه. لم يكن ما به عشقاً لامرأةٍ قدر ما كان لصورةٍ جميلةٍ من صور الطبيعة يتوق إلى رؤيتها ثانية. ولكن الأيام تمر عنيدةً عصيةً يتوعّد كل يومٍ منها بمزيدٍ من الاستحالة، ولكنه يُطَمئِن نفسه أنه قد يتاح له أن يراها في رحلة المدرسة في العام القادم. ولكن المدرسة تُلغي الرحلة في العام التالي ويقدر له أن يترك عمله في المكان قبل موعد الرحلة الملغاة، ويتحول انتظار الفرصة القادمة إلى إحباطٍ صغيرٍ، وتبدأ المشاغل اليومية تذرو ذكرى ذلك اليوم شيئاً فشيئاً.

٥

أحب أن أعرف عنكِ أشياء كثيرة

رداً على تخيلات سارة أثناء عودة الحافلة بهن من دخان همست هند بتلقائيةٍ وهي تلتفت بين الفينة والفينة صوبَ الطالبات حَذَرَ أن يسمعن شيئاً:

آنا أكره الرجّال المرتب زيادة عن اللازم، ولا احب الرجّال الرقيق، ومستحيل اتزوج واحد أصغر مني في يوم من الأيام، يعني اكبحي جماح خيالك.

ولم تكذب هند فيما قالت ولكنها لم تعترف أن ذوقها واجه عاصفةً كبيرةً قبل قليلٍ كادت أن تصدّعه.

ما اظن انه أصغر منك، وإن كان أصغر فعلاً فالفرق أكيد بسيط جداً.

تعرفين مقاييس الزوج المثالي في نظري.

وابتسمت سارة وصمتت. كثيراً ما تناقشت المجموعة في المدرسة عن هذه الأشياء وكثيراً ما صادفت أفكار هند شيئاً من التندر لأنها ترى أن الزوج المناسب يجب أن يكبر

زوجته بخمسة عشر عاماً على أقل تقدير، فإن لم يكن فبعشرة أعوام ولا تنازل بعد هذا وإلا نقص حب الرجل وتدليله لزوجته.

التفتت سارة فجأة وسألت بفضول:

اش قال اسمه؟

وفي الحال أخذت هند تشحذ ذاكرتها ثم هزت رأسها قائلةً:

ما ادري، هو قال اسمه؟

لا، المدير قال، لكن ما اصدّق انك نسيتي.

وابتسمت بمكرٍ وابتسمت هند ببراءةٍ، ثم التفتت إلى النافذة بعينيها الواسعتين البريئتين وأخذت تحاول التذكّر من أجل معلوماتها الخاصة ولكنها لم تنجح.

الكون خارج النافذة مضاءٌ بشمسٍ لطيفةٍ في ذلك اليوم من أيام مستهلِّ الشتاء، ووجوه الطالبات المرحةُ تتلفّت في جميع الاتجاهات، وكانت همهماتهم التي تصبح مزعجةً أحياناً تأتي بلا انقطاعٍ فتقتل صمت المسافاتِ الصحراويةِ الطويلةِ هي وصوتُ محرّك الباص.

ابتسمت سارة لذلك الكون وهي ترمقه من مقعدها، ثم التفتت إلى هند:

أُبوك أثّر عليك وايد.

وتنهّدت هند ثم قالت الخلاصةَ التي تستنجدُ بها دائماً:

أمي ما ينقصها شي، وعايشة سعيدة مع ابوي، ولها قيمة كبيرة جداً عنده، قيمة باقي النسوان ما يحصلونها.

قالتها وهي تنصرف ببصرها عن صديقتها. لكَم أحبت أن تنفرد بفكرها في ذلك المكان المتحرّك الذي يعجّ بالبشر. إنَّ في رأسها شيئاً هائلاً تكاد تنوءُ به مخيّلتها، شيئاً

هـائلاً تريـد أن تصـمتَ وتسـتوعبه شـيئاً فشـيئاً.. لا تسـتوعبه فحسـب، بـل وتسـتمتع باستيعابه. سـارة صـديقتها المقرّبـة لا شـك في ذلـك، ولكنهـا لا تسـتطيع أن تطلعهـا على كل شيءٍ دفعةً واحدة.

* * *

فجأة يشرق وجه الطفلة، لقد وجدت ما تريد أن تفعله: تريد أن تصنع بيتاً. تعدل جلستها وتركز بصرها. إنها تفكّر أين وضعت اللّبِنات البلاستيكية الصغيرة. تعلم أنها في كيسٍ شفافٍ، ولكن أين وضعت أمها ذلك الكيس؟ ما تلبث أن تنطلق إلى غرفتها. تتجه إلى المكتب البنفسجي، تسحب الكرسيَّ الصغيرَ من أمامه، تجرجرهُ إلى الخزانة، تضعه أمامها وتصعد عليه، تقف على أصابع قدميها وترفع رأسها وتمد ذراعيها إلى أبعد نقطةٍ تستطيعان الوصول إليها، مَهمّةٌ شاقّة ولكنه دأبُ من يريد الوصول..
تـرى طـرف الكـيس، تسـحبه نحوهـا فيضـرب صـدرها وتكـاد تفقـد توازنهـا، ولكنهـا تتماسك. تنزل وهو بين يديها، تنظر إليه بسرورٍ ثم تضعه على الأرض. تمسح الغبار العالق بيديها من الكيس في ملابسها وهي تنظر إليه وتبتسم، الآن تستطيع أن تصنع بيتاً.

* * *

في المنزل أطلَّ ماجد من باب غرفته المغلق إلا مما يكفي لخروج رأسه، وسأل أمه ما تريد.
أمّك نَيْلة على الخط.

أخذ ماجد يمشي بغير حماسٍ إلى الهاتف. إن عمته تتصل في أوقاتٍ لا تخطر له على بالٍ، مثل هذه اللحظة التي يقرأ فيها كتاباً وهو يبتسم ثم يسرحُ عنه كل سطرين في صورةٍ تجعله يبتسمُ طوال الوقت. لقد ابتسم كثيراً اليوم، وكان يريد أن يواصل القراءةَ ثم السرحان والابتسام إلى ما لا نهاية له لولا اتصال العمة. وهو لا يكره عمته، بل كثيراً ما أنَّبه ضميره لأنه يشعر أنه يحبها أكثر من أمه. ولكنه بالطبع لا يشتاق إليها بهذه السرعة، ولا يضيره أن يمضي الأسبوع دون أن يسمع صوتها. ولكنها تكاد لا تجعل اليومَ يمضي دون أن تُسمعه صوتها الحنون، ودائماً في أوقاتٍ غريبةٍ لا يتفوّق عليها أحدٌ في اختيارها. وها هي ذي تتحدث إليه بحنانها المعتاد. من الخط الآخر أخذ ماجد يستمع بمللٍ إلى عتاب عمته على غيابه الطويل عنها وعلى عدم القيام بمبادرةِ الاتصال بها لتحيّتها والاطمئنان عليها ثم إلى كثيرٍ من القصص التي حدثت مؤخراً.

بعدها عاد بخطواتهِ المتكاسلةِ إلى غرفتهِ وهو يتثاءب. لقد فترت رغبته في القراءةِ والابتسام، وأصبح يرغبُ في الابتسام فقط. ولا مانع من النوم. امتدت يده قبل أن تتخذ وضعَ يدِ رجلٍ نائمٍ إلى زر المصباح بجوار السرير، وتحت ضوئهِ قبل أن ينطفيء لمعت صورتان مبروزتان، صورةٌ لامرأةٍ نَصَف كتب تحتها بخطٍ طفوليٍّ "أمي نيلة"، وصورةُ طفلين جميلين. الابتسامة على شفتيه ما تزال كبيرة. وعندما أصبح وحيداً في الظلام لم يتوقف عن الابتسام. وسرحَ كثيراً في عددٍ من الصور الذهنيةِ وكوَّن صوراً أخرى غيرها أخذت تتلاحق في ذهنه ثم تباطأت حتى انغلقت عيناه وغاب عن المكان.

كالعادة المملة أخذت هند تصحح دفاتر الطالبات. كانت تشعر أنها خائرة القوى في تلك الساعة. وكانت تضع علاماتها الحمراء بصبرٍ واستسلامٍ علّها تُنهي تلك المجموعة

من الدفاتر فتنامُ قريرةَ العينِ رغم صوت الأورغ الذي يعزف عليه أخوها الأصغر في الغرفة المجاورة. لقد كانت تصدر منه أصواتٌ مشتِّتةٌ للانتباهِ إذ أن أخاها ينتقل من لحنٍ إلى لحنٍ ويبدو في محاولةٍ جادّةٍ لتأليف مقطوعةٍ موسيقيةٍ خاصة به.

آخر دفترٍ أغلقته هند وظلت ممسكةً به قليلاً وفكرها سارحٌ بعيداً جداً رغم الموسيقى المتناثرة النغمات والقادمة من غرفة أخيها. كانت تقاوم صورةً ما منذ البدايةِ ولا تكاد تقوى على الانتظار إلى أن تضع الدفترَ الأخير مكانه فوق باقي الدفاتر لتستسلم لتلك الصورة وتغيب في عالمٍ دخلته مؤخراً جداً، ذلك الصباح فقط..

اقترب الدفتر من فمها واستقرت حافّته عند شفتيها بينما عيناها تنظران إلى شيءٍ غير محدّدٍ يجعلها ترفع عينيها قليلاً ليستقرَّ بصرها هناك. بصرها كان معطلاً في تلك اللحظات، لم تكن بحاجةٍ إليه لذلك فقد أرسلته إلى فوق على غير هدىً وركنته كما تُركن السيارة بعد أن تحمل صاحبها إلى وجهته..
وجهتها كانت بعيدةً جداً، في منطقةٍ يجتازها باص المدرسة في ساعةٍ أو أكثر... هناك... هناك جداً، حيث ذلك الحدث. اهتمامها لم يكن ما استشفّته سارة فقط، بل هناك شيءٌ لم ولا تنوي أن تخبرها به، ذلك سرها الخاص جداً جداً .

حدث ذلك مرتين في ذلك الصباح، صباح الرحلة. المرة الأولى كانت مبهمةً تجاهلتها هند ولم تستخلص منها أي شيء، ولكن المرة الثانية كان من الصعب تجاهلها. قبل أن تخطو إلى الخارج خلف الطالبات التفتت تشكر ذلك الرجل النحيف وحدث الشيءُ مرةً أخرى..

" من أنتِ؟ أحبُّ أن أعرف عنكِ أشياء كثيرة، بل كل شيء... كل ما فيك يثير فضولي بشدة.. ولكنني أسأل من أنت وكأني لا أعرفك، مع أني أشعر أنني أعرفك منذ زمنٍ بعيد. لابد أنني أعرفك وإلا لما شعرت بكل هذه الألفة نحوك، وهذا الانجذاب الذي لا قِبَل لي به..

أكاد أجزم أننا حتما رأينا بعضنا بعضاً كثيراً في الماضي حتى أصبحنا يألف أحدنا الآخر. بل أكاد أجزم أنه لابد أن نكون قد رأينا بعضنا بعضاً منذ الطفولة الأولى..

لابد أننا كنا في روضةِ أطفالٍ واحدةٍ، بل وفي صفٍ واحد، وآكَدُ شيءٍ أننا لعبنا سويّاً وضحكنا معاً مراتٍ عديدة ...

لقد لعبنا "الخشيشة"، وكنت أستطيع أن أجدكِ بسهولةٍ أينما اختبأت...

ولا بد أننا تمرجحنا سويّاً. ولابد أنني دفعت بك بعيداً وأنتِ على الأرجوحة، أنت طلبت ذلك. ولابد أنني دفعت بك بقوةٍ ذات مرةٍ وأرسلتك بالأرجوحة بعيداً جداً جداً، المرة تلو المرة حتى سقطتِ في إحدى المرات، وأخذت تبكين...

بكيت كثيراً بعينيك العاتبتين اللتين لا بدّ أنني تأملتهما طويلاً حتى آلمني ذلك. ولا بد أنني قبّلتك أو قبلت ركبتك المحمرّة بفعل الصدمة كيْما تُشفى سريعاً. ثم سرعان ما انطلقنا نجري ونضحك ثانيةً.. أعرف عينيكِ عندما تضحكان...

ثم لا بدّ أنني وقعت وحظِيَتْ ركبتي بقبلةٍ بريئةٍ منك...

أذكر تلك العينين في ابتسامتهما وبكائهما. إنهما مألوفتان جداً لذلك أعرفهما وأشعر بالانجذاب إليهما.. كما أشعر بالانجذاب إليك..

ليتني أبقى معك أكثر من ذلك. ليتنا لا نفترق.. وليتنا إذا كان لا بدّ من فراقٍ أن نلتقي ثانيةً.. ولكنّي أشعر بقوةٍ أننا سنلتقي يوماً..
إذا لم نفعل فلا بدّ أن أبحث عنكِ.. صدقيني سأفعل."

كان ذلك حديث العيون الذي تبادلته مع ذلك الشابّ عندما التقت عيناهما. لا تعلم إن كانت عيناها هما اللتان قالتا ذلك أم عيناه، ولكنها تعلم علماً يقينياً أنّه قيل بالحرف، كل تلك المعاني قالتها عيناه وأيّدتها عيناها أو العكس. أشياء غامضةٌ غامضة، وواضحةٌ واضحة، أشياء تُفهم فقط ولا تُترجم إلى كلمات... تيارٌ هائلٌ من الخصوصية...

كانت تلك الألفة غريبةً جداً مع أنها لا تظن أنها رأت ذلك الإنسان من قبل. ومن أجل حديث العيون ذاك تغيرت الصورة القديمة التي تحتلّ ذهنها عن رجلها المستقبلي، أو بالأحرى تطورت.. أصبح لها وجهٌ محدّد! وجه ذلك الشخص النحيف. شيءٌ غريبٌ ومخجل، لأنها لم تره إلا مرةً واحدةً من المؤكد أنها لن تتكرر...
وإن تمنت بشدةٍ أن تتكرر.

٦

والرجل يغوص إلى الأعماق، فوقه ترابٌ أو ماء، والفقاعات تخرج منه منذ سنين. إنه يرى الأشياء من خلال غُلالة. يعيشها من خلال الغلالة. لا يعرف ملمسها الحقيقيّ وهو تحت السطح.. حتى السطح بعيد هناك مدىً بينه وبينه..

كفّةُ الميزان في مكانٍ عَلِيّ، تتطاول إلى السماء..

وكلهم هناك معلّقون، ولكنهم لا يستطيعون أن يُرجِّحوا الكفة. لا يستطيعون حتى زحزحتها، مجتمعين، مهما تكاثرت الوجوه المألوفة..

والكفة هناك تأبى الهبوطَ وتسخر من الجميع. يضيع فيها الجميع وتظل فارغة..

ويظلُّ هو هناك تحت سطح الأشياء، صلته بالدنيا فقاعاتٌ فارغة تتفجر عند السطح...

يوم الجمعة أخذت هند تسأل أخاها عن أخبار عمله وتستمع بشغَفٍ إلى ما يقول إذ أن أخبار عمله مسلسلٌ طويلٌ تابعته معه مُذ توظف. وتثير حماسها مواقفُ أخيها في مواجهة الفوضى والتسيّب، وهو إلى حدٍ ما قاسم مشترك بينهما.

وِشْأَخبار شاهين؟ لحد ألحين يروح البيت الساعة عشر ونص؟

هزت نور زوجة أخيها رأسها وقالت وهي ترفع خَسَّةً إلى فمها:

ومن هو شاهين؟ كأنك معاهم يا هند. أتنازل عن نص عمري واعرف اللي عاجبك في أخبارهم.

يضحك فيصل وهند ويجيب فيصل بهدوء:

لا، بدأ يحاول يتمّ أكثر في الشغل لأنه طمعان في ترقية.

ترقية لشنهو؟

مدير.

مدير؟ وانت؟ مُب انت الأحق بحكم ا لكفاءة؟

يبتسم فيصل:

والأقدمية والتخصص لكنه يدري اني ما أرضي جميع الأطراف ويتوقع انهم يتجاوزوني.

وانت بتقبل هالوضع؟

مب متأكد من أن توقعاته صحيحة، لكن لو كانت صحيحة أعتقد اني ما اعرف شاسوّي، فعلاً ما أعرف شنهو العمل.. أنا ما احب المشاكل مثل ما تعرفين، وما أقدر أصغّر نفسي لدرجة الهواش مع المسؤولين عشان منصب.

هذي مشكلتنا، إحنا أعقل مما يجب.

انتي؟ انتي؟

انتي؟

انتي؟ انتي؟

انتي؟

تلفّتت هند جزعةً وهي تسمع الجمع الذي اتفق في حكمه ضدها بتلك الكلمة وأتبعها بضحكاتٍ مختلفة الأحجام، ثم تساءلت ببراءة:

آنا مب عاقلة؟

وتكفّل فيصل بالإجابة:

انتي ساعات تندفعين بسرعة، وينك ووين العقل.

وأمام وجه هند المصدوم أضاف:

لا تخافين، انتي عاقلة، بس ما اظن انك عاقلة وايد.

صمتت رفضاً للكلام بكبرياء مصطنعة فواصل فيصل:

بس طبعاً انتي حليوة، وطيبة وايد، وطموحة، وكأنك البخت.

ابتسمت ثم سرحت قليلاً:

أتمنى، أتمنى أعرف اللي بيصير في إدارتكم في المستقبل.

ونظرت إلى فيصل ولكن هذا نسيَ الموضوع ووجه اهتمامه إلى صحن السلطة.

في المدرسة أخذت هند تناقش الموجّهة في إعادة النظر في بعض أساليب تدريس العربية ولم تتوصل إلى شيءٍ مقنعٍ للطرفين. كان أساس نقاشها أن مادة القراءة ينبغي أن تعطى في المدرسة للتمرين على القراءة فقط، ومع ذلك فالطلاب يتوجب عليهم كل عام أن يستذكروا موضوعات أمثلة الكتاب للامتحان النهائي ليجيبوا أسئلة غيبية عنها وكأنها مادة التاريخ أو الجغرافيا، ألا يمكن توفير وقت الطلاب الذي يقضونه في استذكار أحداث المواضيع التي لا تكمن أهميتها إلا في كونها وعاءًا مؤقتاً يتعلم الطلاب من خلاله القراءة؟

ثم تشتكي من أن مناهج اللغة العربية لا تلقى الاهتمام الكبير الذي تلقاه بعض المواد الأخرى رغم أن مشاكل تعليم العربية واضحةٌ وضوح الشمس. ولا عجب أن تلتفت إليها الطالبة التي طلبت منها أن تكتب على السبورة جملة بها كلمة "تظهر" في أول أيام عملها وتقول بعد أن كتبت حرف التاء:

"الظا أُم شخطة ونقطة والا أُم نقطة بس؟"

وعندما رفعت المدرسة الجديدة حاجبيها دهشةً ولما تستوعب الموقف عادت الطالبة إلى السبورة وأكملت الكلمة فكانت "تضهر"، عندئذٍ اختبرت هند بقية الطالبات وصدمت لأن السواد الأعظم منهن لا يميز بين الحرفين ولا ينطق إلا حرفاً واحداً هو حرف الظاء. عندئذٍ سجّلت في دفتر ملاحظاتها إشارةً إلى هذه المشكلة وبدأت تحاول علاجها هي ومشاكل أخرى كثيرة اكتشفتها فيما بعد.

آعرف ألفظ "الظاد" لكن ما احب...

ليش يا عليا؟؟؟!

أستحي، البنات بيقولون إني أتفلسف.

ومع ذلك يؤيد كثيرون بدء تعليم اللغة الانجليزية منذ السنة الأولى لتشاغب العربية قبل تأسسها..

والموجهة لا تساعدها كثيراً على الانطلاق للتطوير بطريقتها الخاصة، وتصرّ على الإشراف المهيمن حتى على طريقة كتابة تحضير الدروس. ولكن التحضير شيءٌ شخصيٌّ تحب أن تكتبه بحريةٍ وأن ترى فيه الإشارات الشخصية والأسهم غير المرتبة... النظام الصارم الذي أوجد لضبط المهملين يحدُّ من انطلاق المتفوقين.

ماجد أيضا لديه مشكلة. وفي الواقع أن هذا ليس شيئاً طارئاً وإنما هو الأصل الثابت، وعدم وجود مشكلة هو الشيء الطاريء. مشكلته مُزمنة، وهي مشكلة الإنسان الذي تقصر الظروف عن احتواء طموحه وأحلامه. الواقع يقول إن الرجل يجب أن يعمل، وواقعه الخاص يقول إنه يريد أن يتعلم أشياء حياتيةً كثيرةً قبل أن يستطيع تقديم عدد من ساعات يومه للعمل. ولذلك فهو يضيق ذرعاً بكلّ شيءٍ ويفكّر في التخلي عن هذا العمل. ربما هناك مجالات عملٍ أخرى أقرب إلى دائرة اهتمامه، ولو كان في ذلك مغامرةٌ بفرصة رؤية تلك الفتاة في العام القادم، إن صحت تسمية مغامرة.

عمته هنا اليوم. ها هي تقتحم عليه غرفته وتنتزع عنه لحافه. حتى أيام الجمعة لا ينبغي أن تقبى في الفراش إلى الساعة التاسعة صباحاً! لسنا في ثكنةٍ عسكريةٍ ولكن أوامر نيلة يصعب التحايل عليها. وخلال دقائق ينزل إلى المطبخ تابعاً رائحة العصيدة التي تصنعها عمته، فهي سلطانةٌ في بيتها وبيت أخيها حيث تُزيح كل الخدم عن طريقها إذا ما ارتأى مزاجها أن تطهو. وما إن تمضى في الطهو حتى يتشكّل طُعمها الذي لا يخيب. دائماً تجتذب رائحة طعامها اللذيذ من يدخل المطبخ فيقف لمحادثتها فتسلّمه الملعقة ليتولى تقليب ما تعدّ من الطعام..

وها هو ماجد يمسك بالملعقة الخشبية ويقلّب الطحين المحمّر المخلوط بالسكر والزيت والهيل والزنجبيل، وتنصرف هي إلى إعداد القهوة. هذا هو عيبها الأكبر القديم، وجودها في المطبخ يشكّل خطراً على كل من يدخل عليها. ويدخل ابراهيم ويضحك على أخيه الذي اصطيد، فتقرر العمة سراً أن تجعله صيد الأسبوع القادم. وغالباً ما يحترق الشيء في عهدة الآخرين فينالهم اللوم والتقريع، وهذا خطرٌ آخر ينساه الجميع حتى يقعوا فيه.

ولكن العصيدة لا تحترق هذه المرة بل يلتمّ عليها الجميع ويأكلونها بشهيةٍ شديدةٍ وخاصة الأخ الذي يستحثّ أخته الكبرى على زيادة زياراتها المثمرة.

تستيقظ هند من النوم عصراً وتتمطى ثم تهم بمغادرة الغرفة فتفاجأ برسالةٍ ملصقةٍ على بابها:

أختى العزيزة هنّادي
أرجو أن توقضيني الساعة ٥
يجب أن أذهب إلى النادي

أخوك الحبيب سعد

حتى أنت؟ هذا السعد لا يريد أن يتعلم، تماماً كبعض طالباتها! تنتزع الورقة وتكتب له أخرى:

سعّود،

يجب أن تتعلم ألا تكرر أخطاءك، وكان الاتفاق بيننا أنني لا أنفذ طلباتك المكتوبة إلا إذا كتبت بلغةٍ صحيحة، وقد سامحتك مرتين قبلها ولن أسامحك هذه المرة!

واتجهت إلى غرفته وألصقتها على الباب، وما إن همت بالعودة إلى غرفتها حتى سمعت الساعة تدق. الدقة الأولى أربكتها، الثانية.. قررت أن تتجاهلها. عند الثالثة وقفت مترددةً، ثم انطلقت مع الرابعة إلى غرفتها. الخامسة سمعتها وهي تغلق الباب خلفها، ولكنها خرجت سريعاً وهي تنظر إلى الساعة، قد يكون الأمر هاماً..

ولكنه لن يحاول الانتباه مستقبلاً إذا لم يخسر شيئاً.. تتردد قليلاً ثم تمشي بانهزامٍ إلى غرفته وتفتح بابه بغضب، وتؤنبه على تكرار الخطأ الذي يسببه عدم التمييز بين حرفي الظاء والضاد..

يفتح سعد عينين ناعستين ومتسائلتين لا تفهمان ما يدور حولهما فلا تجد هند بداً من إلقاء حقيبة النادي عليه علّه يتذكر موعده. عندئذٍ فقط يفهم كل شيء: إنها طريقة هند التي لا تتغير في التحايل على قراراتها.

٧
ما خبرنا

الوقت مساءً وجو المطبخ مليءٌ برائحة الدجاجة الشهية التي تخرجها ماريّا من الفرن. وإذ تحادث هند أمها على منضدة المطبخ يأتي صوت موسيقى من مسجل سعد. على المائدة أخبارٌ وأخبار، اجتماعية، سياسية، فكاهية، فضائحية.. وتمتزج رائحة الدجاجة المشوية مع صوت الضحكات وموسيقى سعد التي تركها في الصالة وأخذ يرافقها بقدميه إذ هو جالسٌ قرب أخته إلى المائدة ومع همهمة ماريا بأغنية فلبينة. المزيج لا ينقصه إلا شيءٌ واحد.

مريم، هند! **وين عشاكم؟** ذبحتونا من الجوع.

ها قد اكتمل المزيج. وتقترب خطوات راشد الثقيلة، وينظر إلى ساعته:

قاعدين سوالف وضحك واحنا جواعة.

اقعد راشد، اَلحين بنحط العشا.

بَعَد اليوم نتعشى في المطبخ؟

ويستنشق الجو المشبع برائحة الشواء ثم يلتفت إلى ماريا:

انتي اليوم شاطرة يا ماريا، شغلك تمام.

بابا..كل يوم أنا فيه شغل زين.

لا، بس اليوم شغلك وايد وايد زين، أحسن من شغل ماما.

ويزداد تضاحك ماريا وتبتسم مريم:

ما عليك من بابا، بابا اليوم وايد جوعان.

بابا كل يوم الساعة ثمانية وايد جوآن، ماما.

يحدث الأب جلبةً كبيرةً تقطع كل المواضيع السابقة وهو يجلس إلى المائدة، ثم يصمت صمتاً شديداً عندما يوضع العشاء حتى ينتهي من طعامه، ثم ينطلق إلى مستقرّه أمام التلفزيون. وتدخل الأم منتجع الأب وتتابع معه المصارعة الحرة.. إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.

وتتسكع هند قليلاً ثم تنطلق إلى دفاترها وتقضي معها وقتاً طويلاً. غداً أتحدث إلى هذه الطالبة، غداً أشرح هذه الملاحظة إلى تلك، قطعاً لن تفهمها، الطالبات لا يفهمن بسرعة، أو ربما، نحن لا نُفهمهن بسرعة؟

غداً سأضطر إلى ذكر هذه القاعدة للمرة... الألف؟ ربما. هل الطلاب أغبياء؟ أم أن المناهج صعبة؟ أم أننا فاشلون؟ غداً أحاول أن أفهم ذلك. كل ما أعرفه أننا البشر عقولنا تختلف عن بعضها بعضاً اختلافاً كبيراً. هناك عالَمٌ كبيرٌ في دماغ كلٍّ منا. كلٌّ منا يرى الأشياء باللون الذي يصبغها به عقله. عقولهن تصبغ الأشياء بلونٍ لا أعرفه، لا أعرفه على الإطلاق. ولا أعرف إن كان بعضهن يرى لون عقلي..كل ما أعرفه أنني الآن أريد أن أنام، غداً أفكر في ذلك، غداً أفعل كل شيء.. غداً...

في المدرسة وقفت الفرّاشة عند باب غرفة المدرسات المفتوح مشمّرة الكمين وبإحدى يديها مكنسةٌ ومقشةٌ وبالأخرى مجرفةٌ وقالت بنغمة مجُهَدةٍ وهي تنظر إلى هند:

المديرة تبيك يا ست هند.

تبيني؟ ليش؟

ما ادري والله، لكن آنا شفت مَرَة تدخل حجرتها من شوي... كأنها أُم بنية.

ألقت هند بدفتر تحضيرها ومضت خارجةً تشيّعها سارة بنظرةٍ تشدّ الأزر.

في مكتب المديرة جلست هند قرب المرأة التي عرّفتها المديرة بأنها أم طالبتها منى عبد الكريم، وانتظرت.

والدة منى تقول انك طردتي منى من الصف بدون سبب.

مُب بدون سبب، كان فيه سبب وهو انها أهملت الوظيفة مرات متتالية.

والتفتت إليها المرأة:

هي أهملت شوي من زمان، لكن في المرة اللي عاقبتيها فيها ما كان الذنب ذنبها.

ذنب من إذن؟

بصراحة يا ست هند احنا ما سمعنا عن مدرسة تعاقب طالبة لأنها ما تقدر تكتب شعر.

والتفتت المديرة إلى هند لترى ما تقول.

آنا ما عاقبتها لأنها ما تقدر تكتب شعر، لكن علشان اهمال الواجب عدة مرات، كان المفروض تحاول تسوّيه.

لكن الشعر ما يعتبر واجب منزلي.

إذا المدرسة طلبته يكون واجب منزلي.

والتفتت المرأة إلى المديرة وسألت ساخرةً:

إنتو دخلتوا تأليف الشعر في المنهج السنة؟

وتنهدت المديرة وامتنعت عن الاجابة فعادت المرأة إلى هند، فتنهدت هذه أيضاً:

لكن الإنشاء في المنهج كل سنة، والشعر اللي طلبته منهم واحد من مواضيع الإنشاء.

ما خبرنا! عمري ما سمعت ان الشعر من مواضيع الإنشاء، وفي الاعدادية! كنا نكتب مواضيع عن الوطن، عن المطر، عن.. يعني أشياء من هالنوع.

تغير الزمن الله يسلمك، هذي النوع من الكتابات ما عاد ينفع أحد، وعشان هالسبب آنا أحاول زيادة قدرة الطالبات على الاستخدام الخلاق للغة...

لكنه صعب، بنتي ما قدرت تكتب بيت واحد، لأنه يعتمد على الموهبة، إذا ما انوجدت الموهبة اشلون الإنسان يكتب شعر؟

اختى، كان ينطلب منا ساعات واحنا طالبات نكتب قصة قصيرة في منهج الإنشاء، هذي مُب شي جديد.

القصة سهلة، لكن الشعر...

صدقيني، ما طلبت منهم يكتبون شعر مثل شعر المتنبي والا البحتري أو حتى مثل شعراء هالأيام، كل اللي طلبته منهم قطعة شعرية من ست سطور، يحاولون يكتبون أي شي، وما كان في نيتي إني أحاسبهم على مستوى شعرهم... وفي طالبات عمرهم ما فكروا يكتبون شعر ويوم كتبوه كموضوع إنشاء اكتشفوا ان عندهم موهبة حلوة.. وقبل ما أكلفهم بكتابة الشعر قرينا مع بعض نماذج وايد، وكتبنا قصيدة جماعية على اللوح..

لكن بنتي مب موهوبة وخلاص، هل معنى ذلك انها تنطرد من الصف كل حصة انشاء؟

تهيأت هند للانصراف وهمت بالإجابة وهو تحاول كتم ضيقها ولكن وصل صوت المديرة قبل صوتها:

انتظري يا هند شوي من فضلك...

والتفتت إلى الأم ثم إلى المدرِّسة وأكملت:

احنا كلنا نسعى لمصلحة الطالبات، فما في داعي للجدل اللي ما فيه فايدة.

يرضيك إن بنتي تنطرد كل يوم؟

بنتك ما في داعي تنطرد لأنها بتسوى الواجب المطلوب منها وانتي يا أمها لازم تشجعينها انها تبذل جهدها في أداء الواجب، والأخت هند من أطيب المدرسات ومستحيل تطردها مرة ثانية، وخلي منى تاخذ مهلة أسبوع ثاني عشان تسوي الواجب، وإذا حاولت وما قدرت أكيد هند بتسامحها.

وقبل أن تفتح هند فمها بكلمةٍ أرسلت لها المديرة نظرةً ذات معنىً وأكملت:

عندك مانع يا أخت هند؟

لا، لا طبعاً، آنا منتظرة...

والتفتت إلى المرأة:

قولي حق منى لا تقلق بخصوص مستوى الشعر. هو بس تمرين لاستخدام اللغة بشكل خلاق. آنا لو كنت أبي شعر حقيقي كنت كلفت طالبات معينات. آبّي ست سطور بس، وفي أي موضوع، وما لازم يكون بقافية أو حتى وزن. يهمني بس طريقة التعبير، وممكن أساعدها لو تحب.

وقبل أن تخرج طلبت إليها المديرة أن تنتظر ثم نهضت متجهةً إلى أم الطالبة التي نهضت أيضاً. وعدتها خيراً وهي تصافحها وتُماشيها إلى باب المكتب، وما إن عادت حتى واجهت هند بعينيها المتسائلتين:

هند، من فضلك ما نبي مشاكل مع أمهات الطالبات، ما بغيت أغلطك قدامها لكن الشعر فعلاً مب مطلوب من التلميذات، ولا هو موجود في المنهج، وانتي حتى ما استشرتي في الموضوع.

يعني يا ست لطيفة، احترق آنا عشان الطالبات، وشغلهم ماخذ وقتي ليل نهار.. وما يطلع لي أبتكر إضافة بسيطة على المنهج، من يحط المنهج؟ ومن يقول إن المدرس ماله حق ينوِّع في مواضيع الإنشاء؟ وبعدين الطالبات عندهم طاقات كبيرة..

ممكن اعرض عليك نماذج من شغلهم، بتستغربين من جمال الشعر اللي بعضهم كاتبينه.. وحتى المقالات، الموضوع اللي قبل الشعر كان مقال صحفي، وناوية في الأسبوع الجاي نختار أحسن مقال للنشر في جريدة محلية.

استشرتي الموجهة في هذي المسألة يا هند؟ ما تدرين انَّ ممنوع نشر أي شيء بدون إذن خطي من الوزارة؟

عادت هند مبتئسةً من مكتب المديرة. لماذا يتوجب عليها أن تستشير في كل كبيرةٍ وصغيرة،؟ لماذا لا تستمتع بحريةٍ أكبر في اختيار ما تعلمه طالباتها والأسلوب الذي تعلمهن به؟

ماجد أيضا جلس حزيناً أمام زميله عندما اصطدم بشيءٍ ما، وشعر أنه حزينٌ جداً، حزينٌ عن شخصين. كان لديه شعورٌ مبهمٌ بأشياء مبهمة، أما الأشياء التي يفهمها فقد قرر أن يفعل شيئاً حيالها. كتب استقالته ووضعها أمام المدير وانسحب بهدوء. ومرت عليه أيامٌ فارغةٌ شعر فيها بالعجز والفشل، ولكن ثمة صورةٍ متحركةٍ تجعل فراغه شيئاً لا بأس به.

٨

في بعدٍ زمنيٍّ آخر تُخطب سارة وتتزوج فتقيم احتفالاً كبيراً في أحد الفنادق الضخمة، كل شيءٍ يشبه مظهر سارة المعتنى به والمصقول. وبعد قليلٍ نهضت هند من مكانها بجانب العروس لتتيح لاخوتها أن يلتقطوا بعض الصور معها، وانتبذت مكاناً بعيداً أخذت تراقب فيه المكان من بعيد. الطبالات يعزفن أنغاماً قويةً تخترق ذبذباتها الرعدية القلب قبل الأذن فَتُجفله، ويغنين أغانيَ مؤثرةً ومرحةً ترقص لها فتيات صغيرات في أثوابٍ جميلة، ثم تأتي امرأة فتضع أوراقاً نقدية على رأس كلٍ منهن، وها هي إحدى المرافقات للعازفات تجمع النقود المتساقطة عن الرؤوس المتراقصة. أما النقود الكبيرة جداً فتدس في يد كبيرة الفرقة مع ذكر المصدر و"كله بياض بيض الله وجهه"... وعندئذٍ تتوقف هند عن متابعة العازفات إذ يلفت نظرها امرأتان تسعيان إليها من بعيد، إحداهما بدرية زميلتها في المدرسة، أما الأخرى فوجهٌ جديد.

هذي منيرة صديقتي من مدرستي القبلية، وهذي هند زميلتي من مدرستي الحالية.

ابتسمت الاثنتان لبعضهما بعضاً ثم شهقت بدرية فجأة:

بالمناسبة يا منيرة، هند تقدر تساعد في موضوع اخوك..

لكزتها منيرة ولكن بدرية استطردت:

هند أُخوها عنده منصب زين في الإدارة اللي يبيها اخوك، خلها تكلم أخوها..

امتعضت هند لما سمعته، ولكنها لم تستطع أن تبدي أيّ احتجاج أو رفض إذ سُقط في يدها وشعرت أن بدرية حصانٌ أفلت زمامه، وعموماً فهي من الشخصيات اللزجة التي تحاول أن تتكسّب من كل موقف.

مُب صح؟

صح، بس...

تركتها بدرية والتفتت إلى منيرة:

شنهي مؤهلات اخوك؟ قولي لها اياها عشان تكلم أخوها.

ظهر الحرج على وجهي الطرفين الآخرين ولكن الحصان اللزج آخر من يلاحظ أيّ شيء:

كمبيوتر صح؟

إي، وعلوم بيئية بعد، تخرج من سنتين ثلاث من لندن، ودور وظيفة مناسبة لكن ما حصل مجال في أماكن تناسب طموحه.

تقصدين طموح باقي الشباب.. منصب و...

لا، لا. اهو مختلف، يا ليته كان مثل كل الشباب، لو كان مثل كل الناس كان ما واجه أيْ مشاكل، اهو غير، شَيْ ثاني تماماً، بصراحة اهو معقد.. مب معقد، بس.. يعني.. متحمس حق أشياء الناس الثانيين ما يهتمون بها... يعنى..

ابتسمت منيرة، ثم تنهدت وسكتت قليلاً وكأنها تلهث خلف تعبيرٍ مناسبٍ وهو يسبقها دائماً، ثم التفتت إلى هند باستسلام إذ لم تتمكن من القبض عليه وقد قررت أن تبدأ من الصفر: هو طول عمره متفوق في الدراسة، هو طول عمره متفوق في الدراسة، واشتغل شوي بعد ما تخرج، لكن ترك الوظيفة لأنه ما حبها، وبعدين اهو ناوي يواصل دراساته العليا، ويدوّر وظيفة يحس إنها تترك له وقت فراغ حق دراساته وأنشطته الثانية، هو طبعاً ما يحب إني اتكلم من وراه، ويفضل يختار له وظيفة على سَعة بس آنا آبّي أفاجئه..

تنهدت هند وهي تستمع إلى تلك التفاصيل ثم رفعت رأسها علّها تلتقط كلمةً من الفضاء تعبر بها عن رأيها عندما صمتت منيرة. وفيما أخذت هند تنظر إلى المرأة الصامتة كانت تشعر بقلقٍ إزاء ما سمعت، فالأسرة كانت قد عاهدت أخاها ألا تتدخل في عمله، وظلت صامتةً قليلاً، وعندئذٍ قالت بدرية بلا استحياء:

أظن إدارة اخوك أنسب إدارة له لأني سامعة إنهم يحتاجون مبرمجين..

واخو منيرة هوايته البرمجة!

وعندئذٍ أتت امرأتان ابتسمتا إذ رأتا منيرة وهبّت هذه متجهةً إليهما وأحدثت الثلاث نساء ضجةً لا بأس بها فالتفتت هند إلى بدرية وهمست بلهجةٍ معاتبة:

بدرية، الإدارة لا هي ملكي ولا ملك أخوي مثل ما تعرفين.

بس ما تقدرين تساعدينها؟ هالناس وايد طيبين.

ما اقصد شي، بس..

أخفضت بدرية صوت همسها درجتين وأكملت:

وبالمناسبة اهمه أثرياء جداً ولهم نفوذ كبير، وابوه يقدر يسوي له شركة مفصّلة له، لكن الولد ما يبي..

بس يا بدرية الإدا...

ولم تر فائدة من الاسترسال فتنهدت ثم رأت أنْ لا مفر فقالت باستسلام:

زين، آنا ممكن اتكلم مع اخوي مع إني عمري ما سويتها من قبل.. ولا كان في نيتي إني أسويها في يوم من الأيام، ولا أظن إن كلامي بيكون فيه أي فايدة.

بس انتي موافقة تكلمينه، صح؟

اش دراني..

وفي تلك اللحظة تلتفت إليها منيرة وتودعها بمودة على صوت بدرية وهي تعدها خيراً فيما يتعلق بأخيها.

وعندئذٍ تشكرها منيرة وتقول لها قبل أن تبتعد عنهما:

نسيت أقول لك اسمه، اسمه مايد... ماجد الحمدان.

حالما عادت هند إلى المنزل أصبح لديها همٌ جديد، فما كان أحب إليها أن تساعد الآخرين، ولكنها كرهت التدخل في عمل أخيها، ثم أن حديث منيرة عن أخيها أوحى إليها أنه متردد، ويبدو أن شخصيته باهتة، غير محددة الملامح وتبدو مادةً صالحةً لرفض فيصل. وفي نهاية الأمر أقنعت نفسها أن ذلك قد يكون واجباً دينياً أو وطنياً من بعض النواحي، ولكن ماذا سيقول أخوها الكبير؟ وماذا ستقول له؟ وكيف تبرر له تجاوزها لشيءٍ طالما سمعها تحاربه، إنه يعلم أن عدم المجاملة في العمل من مبادئها ..

وفي النهاية أعدت خطبتين إحداهما لفيصل عن الواجبات الوطنية والالتزام بمساعدة شباب هذا البلد، وأخرى لبدرية وهميان في حالة عدم اقتناع أخيها. ولكنها أيضاً وجدت نفسها عاجزةً عن الإتصال بالأخ ومفاتحته، فقررت ألا تشغل بالها كثيراً بتلك المسألة، حتى جاء فيصل مع أسرته للغداء في بيت الوالد كما يفعل أيام الجمع.

اشلون الشغل؟

تمام.

محتاجين موظفين جداد؟ يعني أحسن من شاهين وما ادري من.

لا، ليش؟

وصمتت هند ولكن الأخ استشفّ الأمر فقال مبتسماً:

خلاص عرفت، واحدة من رفيقاتك موصيتك على حد من اهلها، زوجها..اخوها؟ آنا ما قلت لكم ممنوع أحّد يكلّمني عن أيّ احد؟

ليش تقول هالكلام؟ أنا بس أقول إنَّ مفيد إنَّ أي مكان يتطعم بدم جديد بين فترة وفترة.

هند، تبين وظيفة حق من؟

وشعرت هند بانهزام لأنه لم يسمح لها بالتدريج اللازم فقالت بإصرار:

ما في احّد.

ثم تنهدت أمام عيني أخيها اللتين تنجحان في قراءتها دائماً:

أخو صديقة زميلتي في المدرسة عنده بكالوريوس في الكمبيوتر وشهادات في علوم البيئة، واستقال من شغله اللي ما ادري وين ويحب يشتغل معاكم.

ضحك فيصل ثم واصل الأكل وهند ترمقه باهتمام إلى أن التفت إليها ثانيةً.

زين مب محرجك مع صديقة أخت زميلة أخوك، أو اللي هو، خلّه يقدم أوراقه وإذا طلع مناسب ممكن يتوظف، هو قطري؟

أشرق وجه هند وهي تهز رأسها:

إي.

خلاص ما في مشكلة، من حق كل مواطن تكون عنده فرصة عمل. خل يمر المكتب يوم الاثنين الجاي الساعة.. عشر ونص، بس إذا ما طلع صالح...

اسمه ماجد... أظن.. بس ما اتذكر اسمه الثاني.. يمكن الحمدان.

المهم اذا ما طلع صالح، أكيد بنعتذر له، الشغل ما فيه مجاملات.

آدري.

ثم قل الإشراق واكتسب وجهها تعبيراً جاداً:

تقول اخته إنه...

إنه شنهو؟

ما ادري، لازم تقابله وتحكم عليه بنفسك.

اش فيه؟

ما فيه شي...

وعندما انقضى النهار حملت زوجة فيصل طفلها الرضيع واتجهت إلى السيارة، والتقط فيصل طفله الأكبر وما إن استقر على كتفه حتى قبلته هند ثم قالت لوالده بتردد:

فيصل، هذا الشاب فهمت من اخته انه.. يمكن.. معقّد شوي..

معقّد؟

شي من هالنوع... أقول لهم عن الموعد والا خلاص؟

قولي لهم، خل نشوفه.

العمل هو مدينة فيصل الفاضلة، وهو يحاول دائماً أن يكون حازماً في اختيار الموظفين، مما جعله يستبعد طلبات كثيرة في السابق، لذلك لم يشجعه ما سمعه من أخته عن طالب الوظيفة الجديد، وكان شبه متأكد أنه لن يقبل بأيّ حالٍ من الأحوال، ولكن لابد من مقابلته من منطلق أن من حق أيّ مواطنٍ أن يحصل على فرصةٍ للعمل، كما أن هناك الاحتمال الضئيل أنه قد يكون مناسباً.

٩

لو تحركت تلك الكفّة العالية لربما قصرت رحلة الفقاعات..تلك الفقاعات تقطع رحلةً طويلةً لذلك فهي لا تصل قوية، والرجل هناك في القاع، تتناوشه التيارات الجارية ويتراقص شعره معها، ويحاول أن يلمس ما وراء السطح..

هيهات..

الكفة ما تزال معلقةً عالياً، تقف هناك قرب السماء عنيدةً عصيةً تأبى التزحزح..

تقف ثابتةً ثبات ما نسج الزمن عليه شباكه، وتقف الدنيا عاجزةً عن زحزحتها، كلّهم حاولوا وكلهم فشلوا..

وظل الرجل عاجزاً عن لمس الأشياء.

جو الغرفة المبرد بالتكييف المركزي ساحر بهدوئه ونسائمه الباردة المحببة، وهو يضفي مع أوراق نبات الظل الموضوع إلى جانب النافذة الفرنسية تأثيراً شاعرياً قوامه السكون...

الهدوء ساحر مع تلك الأنسام ومع أصوات بعض الرياح في الخارج التي تخالطها أصوات المرور بين الفينة والفينة دون أن تقضى على هذا الجو المسالم وصبغة السكون، ولكن فيصل لا يشعر بهذا السحر، إنه منكبٌ على أوراقه، منهمكٌ في عمله وقد

نسِيَ تماماً أن ذلك اليوم وتلك الساعة موعدُ ماجد، فإذا بطرقٍ مهذبٍ على الباب.. رفع رأسه فإذا هو أمام شابٍ شديد التهذيب تشعر في الحال أنه أخ أصغر لك حالما تقع عليه عيناك، وتذكر في الحال أن تلك اللحظة من ذلك اليوم هي الموعد المحدد لمقابلة إنسانٍ معقدٍ قليلاً اسمه ماجد.

عليكم السلام تفضل.

جلس ماجد بهدوءٍ أمام المكتب على المقعد الذي أشار له بالجلوس عليه، ملابسه مكويةٌ بشكلٍ مبالغٍ فيه وكأنها كُويت عليه وتُكوى في كل مرةٍ ينهض فيها من جلسته، وحقيبته الفاخرة ونظارته الشمسية الثمينة لا تتناسبان مع وجهه الذي يبدو بشاربيه الزغبيين وكأنه حَدَثٌ لم يتعدَّ التاسعة عشرة، وكان الانطباع الوحيد الذي شعر به فيصل وماجد يضع نظارته الثمينةَ في جيبه ويفتح حقيبته الفاخرة أنه سرق النظارةَ والحقيبةَ من والده الثريّ، وكاد أن يبتسم لتلك الفكرة لولا أن الطرف الآخر رفع رأسه ونظر إليه كمن ينتظر شيئاً.

الأخ ماجد...

ماجد الحمدان... خريج جامعة لندن في علوم البيئة ولي اهتمامات في علم الحاسوب الآلي.. واهتمامات ثانية...

وسلمه مجموعة أوراقٍ من ضمنها شهادته الجامعية والعديد من الدبلومات القصيرة في أشياء أخرى.

آنا سمعت انك ما لقيت وظيفة مناسبة، اشلون مع كل هذي الشهادات ما لقيت وظيفة؟

ما لقيت وظيفة أشتغل فيها بتخصصي، وفي بعض الأماكن اللي لقيت فيها التخصص ما حسيت بترحيب فيها... ففضلت اني أنسحب وأدور وظيفة تناسبني أكثر.

شنهي الوظيفة اللي تناسبك أكثر؟

اللي أقدم فيها مهاراتي في الأشياء اللي تعلمتها.. وفكري وما اكون آلة في يد غيري.

بس آنا ما أقدر أضمن لك انَّ بيكون متاح لك انك تستخدم فكرك مثل ما تحب بالضبط، وممكن في أيْ وقت يتم تكليفك بأعمال ما تعجبك، بالإضافة للبرمجة.

آنا سألت عن مؤسسات وايد من رجعت من البعثة، ولقيت نَّ معظمها ما يناسبني، إدارتكم أنسب واحدة حسب ما سمعت... طبعاً أتوقع انه ما بيكون كل شي على كيفي، لكن يهمني اني أشتغل مع ناس متفهمين أقدر أقدم لهم اقتراحات وأفكار وأقدر معاهم أشتغل بالأسلوب اللي أشوفه مناسب.

بس لازم احنا نقتنع بأي اقتراح أو أسلوب في العمل ونوافق عليه.

أكيد.. حاسب حساب هالمسألة.

أشياءِ كثيرة في شخصية ماجد أزالت التخوّف من الموافقة على توظيفه فاستكمل فيصل إجراءات التعيين، وفي غضون شهر أصبح ماجد زميلاً وصديقاً جديداً لفيصل. عندما دخل فيصل مكتب ماجد بعد أسبوعٍ من تعيينه وجد أن تلك الغرفة التي كانت مخزناً أصبح لها منظرٌ آخر، كان في الواجهة صورةٌ كبيرةٌ وظريفةٌ لدبّ الباندا وعلى جانبيها

صورتان أصغر حجما لنوعٍ من الطيور ونوعٍ من الضفادع، وخلف مكتبه يظهر أعلى رأسه ملصقٌ كبيرٌ لغابةٍ خضراء ساحرة الجمال.

مبيّن عليك فنان يا مايد، المكان ذي كان مخزن كئيب قبل ما تجي.

ابتسم ماجد وهو يتأمل معه اللوحات وأجاب:

مب فنان، لكن مثل ما تعرف مهتم بالبيئة.

صح بس ما يمنع ان اللوحات حلوة.

صحيح..

وتجوّل ببصره بين اللوحات يراها بعينٍ جديدةٍ ثم اتجه به إلى فيصل.

بس آنا ما علقتها عشان جمالها... الهدف منها أكبر، وهو إنها تذكرني دايماً بقضيتي الكبيرة، وتلفت نظر الناس لمشاكل البيئة عشان يفكرون فيها.

أخذ فيصل يتفحصها ثانيةً وهو يحاول أن "يفكر" في مشاكل البيئة:

بس تظن انَّ النظر لها بيخلي الناس يتبنون أفكارك البيئية؟

يمكن ما يتبنونها، لكن يمكن يحسون بوجودها على الأقل.

وخرج فيصل من المكتب وقد تكون لديه شعورٌ غريبٌ تجاه ماجد.

أثبت ماجد أنه موظفٌ نشيطٌ ولكن بعد عدة أشهر اتضحت أشياء أخرى عن شخصيته، كان يندفع بكل كيانه إلى ما يهمه من الأمور، وهذه بالتحديد المحافظة على البيئة، فهو مهمومٌ بمصير الغابات المطيرة وما يحدث لخشبها، وبفضل استخدام الورق المعاد تصنيعه على الورق الجديد، وبأهمية الحفاظ على طبقة الأوزون، وضرورة حماية

ضفدع السم والأفعى ذات الجرس ومخلوقات كثيرة لا يعرفها أحد تضمنتها مراجعه الكثيرة التي جلبها معه من بريطانيا. كان في البداية يتحدث وكأنه منومٌ مغناطيسياً عن البيئة ولزوم الحفاظ عليها حتى ملَّ الجميع أحاديثه تلك، خاصة عندما أخذ يطبق أفكاره ويطالبهم بإعطائه الورق المستهلك بدلاً من وضعه في سلة المهملات ليحتفظ به ريثما يقام مستقبلاً مصنعٌ لإعادة تصنيع الورق، وكل ذلك مساهمةً منه في الحفاظ على الغابات المطيرة التي أخذ صنع الأثاث والورق يقلّص مساحاتها.

أمام مكتبه وفي الممر الذي يمر فيه جميع الموظفين وضع ماجد صندوقاً كتب عليه:

[لوضع الأوراق المستغنى عنها (ليس قمامة!)]

وأصبح يضع فيها الأوراق الزائدة. ولما لم يتجاوب معه أحدٌ قام بجولةٍ بين المكاتب وأخذ من الموظفين الأوراق التي لا يريدونها ووضعها في الصندوق ليعوِّدهم على هذا السلوك. ولكن بعد أيام وجد بقايا طعام ملقاة في الصندوق، فطلب من الفراش إفراغه في القمامة، وفي اليوم التالي وجد قشرة موز، وفي اليوم الثالث وجد سجائر ورمادٍ مبلول، ثمة إصرارٍ على تحقير ما يفعل..

يستمع إليه فيصل ويتعاطف معه، ولكنه لا يستطع فعل شيء، ليس من صميم عملهم أن يحافظوا على الغابات المطيرة، ولا يوجد دليلٌ على شخصٍ معينٍ يمكن منعه بشكلٍ خاص. وفي اليوم الخامس يمر فيصل من أمام المكاتب وبيده رزمة أوراق قديمة، يراه شاهين ويراه حمد، ويراه شاكر ويقابله سرور في الممر..

أمام كل هؤلاء يضع أوراقه القديمة في الصندوق وهذه أقصى مؤازرة يستطيع تقديمها..

ثم ذاب ماجد في العمل مع ازدياده، ولكن ازدياد آلية العمل لم ينسه واجبه نحو البيئة التي يبالغ في المحافظة عليها إلا أنه قرر أن يحافظ عليها وحده وألا يستجدي لها اهتمام الآخرين، فرفع الصندوق من الممر بعد أن اقتنع أن حبَّ البيئة لا يمكن تمريره إلى الآخرين –وخاصة الرافضين منهم– بين يوم وليلة.

هند وحدها في غرفتها. بدأت تشعر بالانزعاج من وجود ذلك الوجه في مخيلتها دائماً..
من أمراض المدرسين الأزمات القلبية وكان منها الربو بسبب الطباشير التي عادت لا تستخدم كثيراً كما في السابق، هل من ضمن أمراض المدرسين الجنون؟
ولكن للجاحظ كتابٌ مفقودٌ عن المعلمين يقرّر فيه أن المعلمين حمقى.. لديه العديد من الحكايات الساخرة التي أورد بعضها في كتاب آخر، وها أنا أفكر في إنسانٍ لم أره إلا مرةً واحدةً قد لا أراه بعدها، هل أنا حمقاء؟
من بعيد أطلّت عيناها من مرآتها بأقصى الغرفة إذ التفتت إلى الخلف قبل أن تفتح الباب فسرت فيها رعدةً ففتحت الباب وغادرت الغرفة سريعاً.. تكره أن ترى نفسها حمقاء..
وما إن خطت خارج الغرفة حتى شعرت أنها حمقاء فعلاً، لأن ما تهرب منه أخذته معها، إنه ما يزال هناك، في مخيلتها بملامحه الوسيمة رغم هزاله وبعينيه الحالمتين، وتعلم أنه حالاً سيكون معها وهي على مائدة العشاء..

١٠

من أجل
الغابات المطيرة

يدخل ماجد على فيصل وفي يده كتابٌ صغيرٌ ويقول وعلى وجهه تعبيرٌ جاد:

تعرف شنهو هذي؟

لا، عمري ما شفت شَيْ مثله.

لا يأبه لاستظرافه بل يكمل:

هذي كتاب شعر.

تحب تقرا شعر يا مايد؟ ما كنت آدري انك مهتم بالشعر.

آقرا شعر، لكن مب هذي المهم، المهم في الموضوع.. شوف..

وفتح صفحات معينة من الكتاب وأراه إياها، كان الكلام في تلك الصفحات محصوراً في سطرين قصيرين وأحياناً في سطرٍ واحدٍ قصير، وبعض الأسطر كانت عبارةً عن كلمتين أو كلمةٍ واحدة.

أخذ فيصل ينظر إلى الكتاب وينتظر ما سيقوله لأنه لم يفهم تماماً ما كان ماجد يرمي إليه، حتى قال: معقول هالكلام؟ كل هذي الصفحات الفاضية! هذي الكمية الهائلة من الورق الجديد، وتخيل كم تكون كمية الورق لو أُنتج مثلاً...

مليون نسخة من هالكتاب! تعرف كم شجرة لازم تنقطع عشان تنتج كمية الورق اللي بيستخدموها؟

تنهّد فيصل دون وعيٍ أو إرادةٍ منه، لقد كان مشغولاً جداً في ذلك اليوم وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة، وكان آخر ما يريد أن يتحدث فيه هو الإسراف في كمية الورق وأثر ذلك في إنقاص الشجر و...

...الغابات المطيرة!

وسقطت يد فيصل على وجهه بعفويةٍ مغلقةً عينيه مؤقتاً ثم انزلقت متجاوزةً وجهه إلى أن استقرت على المكتب ثانيةً. وأكمل مُحدّثه:

... هذي الغابات تتقلص وتقل، والله حرام، ما يدرون الناس إن الإسراف يِئذي الكون ويِئذينّا كلنا؟

في تلك اللحظة شعر فيصل أنه يريد أن يطرده طردةً مدويةً ولكنه تمالك نفسه وقال: هم يحبون يقدمون قصائدهم بهالطريقة، هذي تكون طريقة الإخراج مثل ما سمعت، واظن انّ الناس يحبون يقرون الشعر هالشكل...

والغابات المطيرة، وكل الكميات الهائلة من الشجر اللي تروح في صناعة الورق، اش ذنبها؟

لقد وقع ماجد في المحظور ثانية وذكر شيئا أصبح يسبب التوتر لفيصل، ولكن هذا تحلّى بطول البال وحاول أن يبعد عن ذهنه مؤقتاً أنه يكتب مذكرةً هامةً وعاجلةً فقال بهدوء: صحيح... لازم نسوّي شَيْ بهالخصوص، لازم الناس يعرفون أثر الإسراف في الورق على.. الغابات المطيرة اللي في... وين هذي الغابات المطيرة؟

وتغيرت ملامح ماجد فجأة وأصبح الغضب والضيق فيها موجّهٌ ضد فيصل وليس ضد الشعراء:

انت تجاريني مثل ما يجارون الأطفال؟

شعر فيصل بالتوتر مرةً أخرى، وتذكر إجراءاً صغيراً تعلمه للقضاء على التوتر فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً في سره ثم استند إلى الكرسي في حركة بها كميةٌ أكبر من الاسترخاء، واستنشق عميقاً وقال:

مايد آنا ما أجاريك مثل ما تقول لكن إذا تبي الصراحة مناقشتي في هذي المسألة ما فيها فايدة خصوصاً ألحين، أولاً لأن ذهني مشغول باللي في يدي، ثانياً لأني مب صاحب شأن بحيث اتخذ إجراء بهذا الخصوص...وعلى كل حال، فأنا شخصياً لا أكتب شعر ولا اقراه.. ولا أحبه أصلاً!

ظن فيصل أن إعلان عدم حبه للشعر سيحظى بالرضى والقبول ولكن ماجد فاجأه عندما أجاب قائلاً:

آنا مب ضد الشعر يا فيصل، بصراحة آنا احبه وايد، وهذا اللي خلاني أشتري هالكتاب...

مضت لحظةٌ حائرةٌ شعر فيصل أثناءها بقلة الحيلة بل بانعدامها تماماً واكتفى بالنظر بعينين مهزومتين إلي محدّثه الذي علم عنه في تلك اللحظة فقط أن إرضاءه غايةٌ لا تدرك، ثم بدا كأنه انتبه لما سمع وقال بشيءٍ من الفضول:

تحب الشعر فعلاً؟

أضحكه استغراب فيصل ومفاجأته ثم في أعقاب ضحكته قال:

إي، احبه جداً، واكتبه أحياناً ...

ثم اختفت الابتسامة وأكمل:

لكن بَعَد احب الغابات والأشجار، وأحب هذا الكوكب... وما عندي مانع آقرا شعر في كتاب حجمه صغير وصفحاته من ورق معاد تصنيعه.

الغابات ، الكوكب! هذا مايد والا برنامج وثائقي مترجم.

شعر ماجد أنه أخذ أكثر مما يجب من وقت مستمعه الذي يمنعه أدبه من إحراجه، فأغلق كتابه وخرج، وحدّق فيصل أمامه متفكراً في شخصية ماجد الغريبة بعد أن اختفى ثم عاد إلى عمله يحاول إعادة وضع نفسه في الجو الذي كان فيه قبل دخوله.

ومرت أيامٌ رتيبة على ماجد ازداد فيها هاجسه البيئي حتى طرأ عليه أن الورق في الخرامات يمكن الاستفادة منه بجمعه وإعادة تصنيعه. كان يذهب إلى مكتب سرور ومكتب فيصل ويستأذن في تفريغ الخرامة الموجودة لدى كل منهما، ويجمع كل ذلك في مقلمة صغيرة ويمضى بها إلى مكتبه. وفي أحد الأيام كان فيصل يراجع حسابات دقيقة فإذا بماجد يلتقط خرّامته ويستأذنه في تفريغها، وفي لحظةٍ نادرةٍ أفلت زمام أعصابه فقال بتهكم:

حلبتها أمس!

كان في صوته رنةً ساخرةً وصارمة، ففوجيء ماجد بردّ فعله ذاك بينما أكمل فيصل:

ما فرّغتها أمس؟ نسيت؟ ما عاد فيها شي! انت تنظفها أول بأول لدرجة إني صرت اتمنى يجتمع فيها شي اتسلى بتطليعه منها!

سقطت ورقةٌ مستديرةٌ واحدةٌ من الخرامة المفتوحة وظل ماجد مبهوتاً بما سمع وهو الذي لم يعتد من فيصل سوء المعاملة. ظلّ صامتاً برهةً ثم أغلق الخرامة واتجه إلى الباب، فناداه فيصل بسرعةٍ فعاد متجهم الوجه ووقف أمامه.

ما كنت اظن انك بتصير مثلهم يا بو راشد.

استرضاه فيصل ثم تحول بصره إلى الورقة الصغيرة التي سقطت فالتقطها باحتقارٍ وقال:

شِتْسَوّي بهذي الورق؟ تستخدمه في أشياء فنية؟

لا، اوفره. تعرف اني مؤمن بإعادة تصنيع الورق.

شفت اشلون؟ هذي اللي يخلي زملائك يستهزؤون بجهودك لحماية البيئة والطبيعة...

انت تبالغ يا مايد.

ورفع الورقة بين إصبعيه نحو ماجد وأكمل:

انت صحيح تظن ان هذه النتفة بتنقذ أشجار الغابات المطيرة؟

لم يجب ماجد فأكمل فيصل تقريعه وقد انخفضت نبرات صوته:

لا تنجرف بفكرك بعيد يا مايد مثل بعض الأجانب، الأجانب مختلفين، وايد منهم حياتهم الروحية فارغة لذلك يبالغون في الأشيا اللي يتحمسون لها.. لأنها تسد عندهم مكان العقيدة أحياناً أو الخواء العاطفي، اش أهمية نوع من الثعابين الخطرة؟ واش بيصير لو انقرض الذيب الفلاني والدب العلاني؟ هذي الدنيا، ما انقرض الرخ؟

وصمت قليلاً إذ شعر أنه قطارٌ أوشك أن ينفلت من قضبانه وانتبه إلى النظرة الغريبة على وجه صاحبه، لقد شعر ماجد أنه كاد يصاب في مقتلٍ ولكنه ابتلع ذلك الشعور وحاول أن يبدو طبيعياً.

ما تشوف أي أهمية لحياة هذي المخلوقات اللي تخلي الأرض كوكب متوازن ومتنوع وممتع؟

أشوف أهميتها لكن ما لازم نبالغ يا مايد.. البشر أهم من هذي المخلوقات...

مايد، انت تدري ان احنا القطريين كفئة بشرية أندر من هذه الطيور والثعابين والدببة التي تواجه خطر الانقراض؟

شوف كم عددنا بين سكان العالم، احنا بحاجة للاهتمام ببناء نفسنا وبلدنا وحفظ تراثنا وشخصيتنا الخاصة كفئة بشرية قبل ما نفكر في الضفدع السام والحية أم جرس.

أطرق ماجد مفكراً ثم قال:

أظن ان كلامك صحيح، يمكن آنا غلطان فعلاً لأني صرت أبالغ وايد، لكن شنو الحل قدامي وأنا أشوف كل الناس يستهينون بالبيئة؟

فكرت في محاولة لزيادة وعي الناس بالبيئة عشان يشاركونك الاهتمام؟

فكرت؟ هذي حلم من أحلامي من زمان، لكن الناس ممكن يتقبلون؟ ليش لا؟

هز ماجد رأسه متشككاً وخرج من المكتب وظل فيصل يراقبه حتى اختفى من أمامه تحمله خطواته الحائرة.

على مائدة يوم الجمعة أطلق فيصل تنهّدةً كبيرة وكأن سؤال أخته عن العمل أثار شجوناً: الشاب اللي توسطتي له، طلع شَيْ عجيب!

وضحكت هند بمرحٍ مشوبٍ بالشعور بوخز الضمير.

يعني اشلون؟ مع إني ما توسطت ولا شي...

ما ادري معقد، ما ادري عبقري... ما ادري اش بلاه... هو طيب ومجتهد وأنا حبيته، صدقيني حبيته، ومن أول نظرة! ومازلت احبه... هو انسان حبّوب ولطيف ومهذب لكني ساعات وِدِّي اكَفْخه، أضربه ضرب عدل!

وضحكت والآخرون وهم يتساءلون بأعينهم عن السبب.

بصراحة كرهت الغابات المطيرة اللي مسَنْدِرْنا معاها، يعني فعلاً أزعجنا بها وايد! خلاص كرهتها وما عندي مانع انها تنقرض عن بكرة أبيها! بل اتمنى انها تنقرض! عناد!

ضَحِكُ هند كان له طعمٌ مختلف، كان الجزء الداخليّ منه نوعاً من العطف تجاه تلك الشخصية الغريبة التي لا تعرفها إلا من خلال حكايا أخيها.

١١

إلى متى؟

والثغرات كثيرةٌ، وعظيمة..

قطع الأوراق المستديرة المستخرجة من الخرامات لا تكفي لسدها، كلها تضيع وتظل الثغرات فارغة..

جذوع أشجار الغابات المطيرة تصنع كماً هائلاً من الأوراق..

وكل الأوراق تعجز عن سد الثغرات.. كلها تضيع في عمق الثغرات، وتظل الثغرات ثغرات..

لو اجتمعت النمور البيضاء النادرة مع قطعان الغزلان التي يُخشى عليها من الانقراض وجميع أنواع الضفادع والطيور النادرة وما انقرض من الأحياء التاريخية بما في ذلك الرخ والديناصور والعنقاء واكتملت كلها أمما لما سدت تلك الثغرات..

وهي هناك، كل هذه الأمم هناك.. في الجو، تتزاحم على الكفة العالية ولكنها لا تزحزحها، وتظل الكفة فارغة...

وتظل الفقاعات تتصاعد من تحت السطح..

أثبتت الأيام القليلة التالية أن ماجد شخصيةٌ مرنةٌ تستوحي أفكاراً كبيرةً من اللفتة والفلتة والإيماءة وعدمها، لقد أوحى له رد فعل فيصل ذاك أن يكتب ما يفكر فيه على هيئة مقالاتٍ أسبوعيةٍ في إحدى المجلات المحلية وفاتحه برغبته تلك فشجعه فيصل كثيراً. وهكذا كتب ماجد عدة مقالاتٍ غنية بالمعلومات الواسعة عن البيئة ثم توجه بها إلى إحدى المجلات. في اليوم التالي سأله فيصل ما فعل بالأمس فأجاب بصوتٍ غاضبٍ محبط:

انسى الموضوع تماماً، آنا نسيته.

مفاجأةٌ لفيصل غير متوقعةٍ على الإطلاق، لماذا؟

تردد ماجد قليلاً.

مايد قول لي شنهو اللي صار، أمس طلعت بأوراقك وكلّك حماس، شنهو اللي غيّرك.

قالوا ان اللي كتبته ما يصلح، قالوا انَّ عندهم ناس تجمع لهم الأخبار والمعلومات من مصادر مختلفة.

شَيْ غريب، آنا عمري ما قريت شيْ من نوع كتاباتك في المجلات المحلية.

ومع ذلك قالوا انهم ما يحتاجون هذي المادة... ما تصلح لهم.

ثم أطلق ضحكةً صغيرةً شبه هستيرية وقال: تدري اش طالبين مني؟

اش طالبين؟

خواطر! قالوا لي اني ممكن أكتب خواطر ووعدوني بتخصيص باب أسبوعي حق "خواطري".. تصدق؟ يمكن كِسَرْت خاطرهم.

ويضحك فيصل ضحكةً قلبية.

زين! على الأقل انت ألحين تنكّت... بس قول لي، شنهو خواطر.. بالضبط؟

خواطر.. تعرف الخواطر، يعني.. يعني... يعني أشياء ما تنفع! كتابات شخصية، وجدانيات، تأوهات.. آنا ما اعرف اكتب خواطر، أفضل أقدم معلومات... ما اقدر اهدر وقتي في شي أكثر فايدته إنه يملا فراغ في مجلة أو جريدة.

زين جرب واحدة ثانية، أو جريدة..

لا، جربت أكثر من واحدة وتأكدت انهم كلهم بيرفضون.

اسمع، عطني هذي الأوراق، باقراها وأفكر لك في شيْ مناسب.

تردد ماجد برهةً ثم مده يده بها ببطءٍ وعلى وجهه تساؤلات كثيرة. أخذ فيصل الأوراق وذهب هو إلى مكتبه.

قرب نهاية الدوام ومع القهوة أخذ فيصل يقرأ أوراق ماجد.. مادةٌ ثريةٌ بالمعلومات، ما هو سبب الرفض يا ترى؟ ولكن ثمةَ شيءٍ غير طبيعيّ تماماً بها، كلها تتحدث عن البيئات البعيدة، ولا شيء عن هنا.. لملم الأوراق وأسرع بها إلى ماجد، وشرح له ما يراه. بعد محاولةٍ كبيرةٍ منه اقتنع ماجد بأن يركز على مشاكل البيئة المحلية وأن يحاول نشر ما يكتبه ثانيةً بعد تغيير وجهة الاهتمام، وإن ظل مُصرّاً أننا جميعاً ننتمي لكوكبٍ واحد.

وقفت الفتاة أمام المايكروفون وارتجفت يداها قليلاً فأحكمت قبضتها على الورقة وأخذت تقرأ مقالاً كتبته عن مباحثات السلام، كانت المديرة ترمقها في حذر، وكان بعض المدرسات يبتسمن، وكان الوجه السعيد الممتلئ فخراً وجه هند، لاسيما أن طالبتها كانت تظهر حرف الضاد بوضوحٍ في مواضعه. كانت كل لفظة ضادٍ تكاد تهزها

طرباً وفخراً، فتاةٌ جديدةٌ أصبحت تستطيع لفظ الضاد بلا عناء أو حرج. ولكن المديرة لم تلاحظ ذلك لأنها لم تبتسم بفخرٍ بل هشّت ذبابةً عن وجهها وأخفضت رأسها كهيئة المنتبه وإن بدا عليها أنها فقدت الاهتمام بما تسمع، بل وسرحت في الحال في أشياء أخرى بعيدةٍ عن حرف الضاد.

ثمة موكبٌ من الأيام الكئيبة المتربصة بماجد منذ مدة، تطلّ عليه من نافذة غرفته وتلبد له خلف الباب وتسير معه إلى العمل ثم تعود معه في نهاية الدوام، ويتثاءب بنهاية اليوم ويثقل جفناه وينام فتنام معه وهي متربصة به في السقف. إلى متى؟

إلى متى أيتها الأيام تمرين فارغة، وان امتلأت فإنك لا تمتلئين إلا بما يضايق وبما لا يسر، إنني أعمل بجدٍ ولكني لا أكاد أجني شيئاً، ولا أستطيع أن أنجز شيئاً... حتى الأشياء التي أحب أن أراها تُخفينها عني، تلك الفتاة مثلاً، لابد أنك تعرفينها جيداً لأنني أشعر أنك تخفينها متعمدة، لقد أتيتِ بها في طريقي في العام الماضي وانتظرتُ أن تعودي بها في الموعد المحدّد ولكنك لم تفعلي، لماذا؟ إنني لا أريد بها شراً، فقط أريد أن أراها ثانيةً، ليس من المعقول أن تتركيها تجري في تلك الغابات كل هذه المدة، لابد أنها ملّت. أنا أيضاً مللت.. أعرف أن هناك أشياء كثيرة تدخل في نطاق غير المعقول وأفضل انتظار المعقول ولكن لى متى؟
أخبريني إلى متى؟

هبّ ماجد من سريره حيث كان مستلقياً واتجه إلى أخيه والتقط من يده مفكرته التي كان يقرأ منها، لقد تركه في البداية يقرؤها بطيب خاطر، ولكن عندما وصل إلى تلك الصفحة وأخذ يضحك لم يحتمل ماجد.

من متى تتسلط على أشيائي الخاصة؟

شفتها مفتوحة هناك فحبيت اقراها، من هي "تلك الفتاة"؟ حقيقة والا أحلام؟

ما يخصك، إسمع ابراهيم، مب مسموح لك مرة ثانية تقرا شي على مكتبي، فاهم؟

زين، زين.

ثم يتضاحك: وأمي مسكينة تعبانة وذابحة روحها وهي تفكر لك في بنت مناسبة تزوجك اياها.. وامي نيلة تنطر أسما تكبر بفارغ الصبر عشان تخطبها لك.. وانت تحب!

أولاً أسما تناسبك انت أكثر مني لأن عمرها اثنا عشر سنة وانت عمرك العقلي عشر سنين. وبعدين يا عزيزي فيه شي اسمه خواطر، هذي خواطر!

خرج ابراهيم ضاحكاً أما ماجد فقد أطبق على المفكرة وهو مطرقٌ ثم فتح أحد أدراج المكتب الكبير ليضعها فيه بعناية، ولكنها لم تدخل بسبب ألبوم الصور الضخم القابع هناك، ففضل وضع المفكرة ووضع ألبوم الصور في مكان آخر، ليس لديه صورٌ يخشى عليها من الوقوع في يد ابراهيم خريج الجامعة الذي منح نفسه عاماً حراً لا يعمل فيه توطئةً لتولّي إدارة إحدى شركات والده في العام القادم..

أخذ ماجد يتلفت هنا وهناك في غرفته المزدحمة باحثاً عن مكانٍ جديدٍ حتى إذا عجز عن إيجاد حلٍّ جلس على طرف السرير وأخذ يتصفح الألبوم. ابتسم عندما رأي خمسة صبيان يقفون بملامح متحفزةٍ أمام نور الشمس الساطع الذي يخلق تطرفاً بين الظل والضياء في تلك الملامح الطفولية. بأسفل الصورة تسجل الكاميرا تاريخاً :٧٨/٥/٤ كانت تلك صورة أصحابه القدامى وهو يقف بينهم، كانوا أطفالاً في السادسة، وكانت

ملامحهم مختلفةً تماماً عن ملامحهم عندما كبروا، لفتت نظره تلك الصورة كثيراً وأخذ يتأملها ملياً، يتأمل وجوه أصدقاء الطفولة: أحدهم كان يضحك حتى اختفت عيناه، وأحدهم كان يصطنع ابتسامةً أنيقةً من أجل الصورة، وأحدهم كان ذاهلاً عن كل شيءٍ وهو يتأمل شيئاً في يده اليمنى، بينما كان آخر يأكل أصبع "كتكات" غير آبهٍ لما يحدث، وكان هو يشم زهرةً بشكلٍ مصطنعٍ أيضاً وعيناه متجهتان إلى الكاميرا، لم تكن تلك الزهرة واضحة..

قربَّ الصورة من عينيه وأخذ يحدِّق فيها ليعرف تلك الزهرة وأيضاً لم يتمكن من ذلك إذ كانت أصابعه الطفولية البضة تحتضن الزهرة بحنان مخفيةً ملامحها، ولولا ساقها الظاهر من تحت يده بأوراقه المستطيلة لما عرف أنها زهرة، ولكن سرعان ما زال فضوله إذ رأى في خلفية الصورة وإلى جانب الصبية مجموعة شجيرات بها أزهارٌ مألوفة، ابتسم لاكتشافه وواصل تحديقه في تلك الصورة، ثم أخذ ينظر إلى صفحات الألبوم صفحةً صفحة باحثاً عن صورةٍ أخرى بها تلك الزهرة ولكنه لم يجدها ثانية.

بعد أيام دخل فيصل إلى مكتب ماجد وبيده بعض المذكرات فلفت نظره أن الباندا قد اختفى من مكانه وظهرت مكانه رسمةٌ لزهرة.

وين الباندا؟

راح هناك.

التفت فيصل خلفه حيث أشار ماجد فرأى الصورة معلقة على الجدار الآخر فعاد ببصره متسائلا:

ليش؟

هذي قضيتي الجديدة، تعرف هذي الزهرة؟

قاوم فيصل الضحك واستكمل تأملها ثم قال وهو يحدّق فيها:

تبَيِّن لي مألوفة شوي.

هذي زهرة كانت تنبت في قطر، أظن مع الأسف انها انقرضت.

ومن وين جبت هذي اللوحة؟

لقيت لي صورة معاها فودّيتها حق رسام رسمها لي.

لم يستطع فيصل حبس ضحكته أكثر من ذلك فانطلقت خارجةً وضحك معه ماجد.

حرام اكون مصوِّر مع زهرة؟

لا طبعاً.. من فضلك شوف هذي المذكرات، وعطني رايك.

١٢

أين أنتِ؟

جلست هند متأففةً بعد مناقشةٍ غير مجديةٍ مع المديرة وبدأت تعدُّ الدفاتر لتصحيحها، وفي هذه اللحظة دخلت سارة مسرعةً وبيدها جريدة.

ليش هنّادة مهمومة اليوم؟ أكيد كنتي في مناقشة حامية الوطيس مع.. المديرة؟

اتركيني لهمي يا سارة ولا تفتحين الموضوع من فضلك..لايعة كبدي من الكلام.

عندي لك مفاجأة يمكن تطلعك من هالمزاج العكر.

ما أظن يا سارة.

شوفي.

"زهرة البراري الأليفة، أين أنت؟" شنهو هذي؟

قولي **من** هذي؟ عرفتيه؟

حدقت هند في الوجه النحيف الذي ترافق صورته المقال ثم ابتسمت بعفوية:

تذكرت ، هذي الرجّال اللي شفناه في دخان، ما كنت آعرف انه يكتب في الجريدة، هو يكتب من زمان؟

ما ادري، أول مره أشوفه اليوم.

همت سارة باستعادة الجريدة ولكنها وجدت مقاومةً من كفّي هند اللذين أطبقا على الجريدة وهي تقول:

خليني آقرا المقال.

بس لازم أرجع الجريدة حق عايشة، هذي جريدتها.

آنا باوديها لها عقب ما اخلص.

والتفتت بجسدها كله إلى ناحيةٍ معاكسةٍ لسارة كإشارةٍ مفادها: "دعيني أقرأ في هدوء!" وأخذت تقرأ المقال بتمعّنٍ شديدٍ لم يحظ به مقالٌ آخر لديها من قبل...

"زهرة البراري الأليفة، أين أنت؟

الانتماء يعني التصاقنا بشيءٍ ما، يعني أن نشعر أننا وهذا الشيء عنصران يجمعنا شيءٌ تدلُّ عليه أشياء كثيرة. هذه الأرض التي عشنا عليها حياتنا تمُدّنا بهذا الشعور، شعور الانتماء إليها. والنباتات التي تنبت فيها أيضا منتميةٌ إليها، ونحن والنباتات عناصر مختلفةٌ منتميةٌ إلى هذه الأرض ومنتميةٌ إلى بعضها بعضاً..."

"في طفولتي كنت أرى في حديقة منزلنا زهرةً صغيرةً تشكّل جزءاً من ذكريات الطفولة الأولى، وجزءاً من انتمائي لهذه المنطقة..."

"عندما أبحث الآن في المشاتل لا أرى إلا أزهاراً فاخرة أكثرها من بيئات غنيةٍ بالزهر وبعيدةٍ عن صحرائنا هذه التي ننتمي إليها."

"ولأنني كنت صغيراً جداً لم أعرف اسم تلك الزهرة، أذكر منظرها، وعندما أستحضر هذا المنظر يأتي إلى أنفي شذاها الرقيق، ولكني لا أعرف اسمها. عندما بدأت رحلة

البحث عنها علمت أنها ربما كانت من عائلة القرنفل أو من عائلة نباتٍ صحراويٍّ يدعى السنط أو السَلم، ولكنها ليست سنطاً أو سلم، إنها زهرةٌ حضريةٌ رقيقةٌ لا تدخلها خشونة نباتات الصحارى من قريبٍ أو بعيد، لذلك وحتى أعرف اسمها وأجدها فسأطلق عليها اسم "زهرة البراري الأليفة"..."

هنا تبتسم هند وتلتفت إلى صديقتها لتعلّق على بعض ما قرأت ولكنها لا تراها إلى جانبها، لقد كانت تجتاز الباب وعلى ذراعها كتابها ودفترها، فعادت إلى المقال تكمله بهدوءٍ وفي داخلها بهجةُ من وجد شيئاً يبحث عنه..

عندما انتهت الحصّة واجتمعت بسارة جعلتها تقرأ المقال، ولكنّ غريزة سارة مختلفةٌ لذلك فقد كوّنت فكرةً لم تكوّنها هند التي تساءلت:

اشلون شكل هذه الزهرة؟ أتمنى اعرف الزهرة اللي يدورها، عرفتيها؟

ابتسمت سارة وردّت بتهكم:

ما اظن انه يدوِّر زهرة.

اش تقصدين؟

وتورد خداها إذ التقطت معنى كلام سارة وصمتت، ولكن سارة ضحكت بمكر:

انتي تعرفين اللي اقصده وإلا ما كان وجهك احمّر، أكيد هذي رسالة موجهة لبنت، يمكن موجهة لك انتي.

تورد خدا هند مرةً أخرى ثم أمسكت بيد سارة:

انتي مدرسة علوم، واللي يعافيك دوري هذه الزهرة، القي لنا السّلم عشان نشوفها، يمكن نتعرف على الزهرة اللي يقصدها إذا كانت تشبهّا مثل ما يقول.

وشنهو اللي بيتغير في المسألة إذا تعرفنا على الزهرة؟
على الأقل بنعرف هو يدور زهرة والا انسانة.

صدمت سارة عندما رأت زهرة السلم وقبحها في أحد كتب المكتبة وأخذت المرجع معها إلى غرفة المدرسات لتصدم به هند بعد أن تنتهي من حصتها. ولكن هند لم تصدم لأنها تذكرت في الحال تلك الزهرة الجميلة.
عرفت اش يقصد، كان في بيتنا القديم منها... حتى أذكر عطرها الخفيف، أذكره لحد ألحين، وكان لونها أما أبيض أو بنفسجي فاتح.
ازدادت صدمة سارة فابتسمت لها هند:
انصدمتي لأن استنتاجك طلع غلط؟

بصراحة صدمني أكثر من شي، أولا شنهو هذي الذوق الكريه اللي عنده، واشلون يتكلم بكل هذي العواطف عن زهرة مثل هالزهرة؟

لا، ذوقه مب كريه، الزهرة هاذيك أجمل من الزهرة الصحراوية.

ومع ذلك يا هند فآنا مقتنعه انه يرسل رسالة حق بنت. ليش يخاطب زهرة؟ ولو كانت موجودة كان هان الأمر، لكنها منقرضة!

ضحكت هند ولم تعلق بشيء، يجب أن تتظاهر أمام سارة أن الأمر قد انتهى. وخطت إلى درسها وهي مليئةٌ بكلمات المقال، ثم ها هي والسيارة تقف أمام الإشارة الحمراء تبحث عن بائع الصحف بعينيها وتتلفت يميناً وشمالاً إلى أن رأته عائداً من الرصيف الآخر، فأشارت إليه ثم أخذت تبحث عن ريالين في حقيبتها، وما إن وجدتهما ورفعت رأسها ثانية حتى كان نصف ذراع بائع الصحف يمتد أمامها بالشرق.

لا الراية.

فانطلق يجري ثانية وهي تترقب الإشارة التي اصفرت فجأة، وبدأت السيارات في التحرك، ولكن نصف الذراعٍ النحيف امتد ثانيةً داخل السيارة بالجريدة والتقط الريالين، فتنفست هند الصعداء ووضعت الجريدة فوق كتبها وأخذت تنظر إلى الأمام وكأنها لم تفعل شيئاً، وكانت مليئةٌ بكلمات المقال الذي قرأته في البيت ثانيةً وثالثة.

بعد يومين يأتي فيصل ليزور أهله ويقول لأخته فجأة:

تذكرين أخو صديقتك اللي وصيتيني عليه؟

ماجد الحمدان؟

وإذ نطقت الاسم تذكرت في الحال أن كاتب المقال -ومن ثم بطل يوم الرحلة - أيضاً اسمه ماجد الحمدان. أكملت وهي تحاول إخفاء اضطرابها لاكتشافها أن هذا هو من كلّمته عنه.

اش فيه؟

بدأ يكتب في الراية، طلع مقاله الأول من يومين.

إذن فقد كان هو! كيف لم تتذكر الاسم عندما رأته في الجريدة، ويكمل فيصل:

هو طبعاً مبتدئ في الكتابة، الله أعلم بينجح والا لا.

ثم يضحك كمن تذكّر شيئاً:

الغريب في الموضوع إنَّ... آنا قلت لك عن بداية مشروع الكتابة؟

لا، ما أذكر.

في البداية يوم بغى يكتب مقالات عن البيئة طلبوا منه يكتب خواطر، وهو حس بالإهانة ورفض رفضاً باتاً، واللي ضحكني ألحين ومستغرب له جداً إنَّ موضوعه اللي نشره خواطر تقريباً.

سرحت قليلاً وهي تتذكر كلماته التي حفظت كثيراً منها عن ظهر قلب.. ها هو أمرٌ جديدٌ يحتاجُ إلى استيعاب.

كانت فرحة هند باكتشافها أن ماجد يعمل مع أخيها لا توصف. شعرت أنه قريبٌ منها، في متناول يدها ومع ذلك فما أبعده! ولكن ازداد شعورها أنهما سيلتقيان أو سوف يلتقيان، لا يهم السوف المهم هو حدوث اللقاء، إنهما حبتا رملٍ على وشك الالتقاء في أضيق جزءٍ من الساعة الرملية، لقد أصبحا على مقربةٍ من هذا المضيق، ولكن هل يلتقيان فعلاً، وان هما التقيا هل سيحدث ما يوقف تدفّق الرمل القسري وتباعد حباته عندما يصلان أم أنهما سيتفرقان حالما يجتازان ذلك المضيق؟ ما الذي تخبؤه الأيام يا ترى؟

"لقد شعرتُ بحبٍ كبيرٍ لهذه الزهرة عندما رأيت صورتها خلفي وخلف أصدقائي ونحن جلوسٌ أمام شجيراتها.."

هل يعقل أن يتحدث رجلٌ عن زهرةٍ بكل هذه المودة؟

"شذاها الهامس ولونُها الرقيق ما زالا ينسجان طيفاً جميلاً في مخيلتي."

أتراه يعنيني كما تقول سارة، إنها أعلم مني بهذه الأمور...

وتزداد تحديقاً في الكلمات وتزداد قناعتها تارةً وحيرتها أخرى حتى دسّت بالجريدة في مكانٍ غير بعيدٍ بين كتبها.

"وتقتُ إلى الوصول إليها حتى أضحت كالحلم المسيطر برقّته وشفافيته.."
أنّى لهند أن تقاوم كل هذه الكلمات التي تظهر أمامها حتى بعد أن تترك الجريدة، أنّى لها ألا تراها رسالةً وكل ما فيها يشعرها بقوةٍ مدويةٍ أنها رسالةٌ مفتوحةٌ إلى امرأة... إليها.
"زهرة البراري الأليفة، أين أنتِ؟"

* * *

ها هي الأرضية؛ قطعةٌ كبيرةٌ خضراء. على هذه القطعة سيقوم البيت الجميل. البيت به نوافذ زجاجيةٌ حوافها حمراء، وبه حديقةٌ بها أزهارٌ صغيرةٌ وشجرةٌ باسقة، مكانها واضح.. ها هنا يجب أن تكون، والآن إلى البناء..
بماذا نبدأ؟ بالباب الأسود الكبير أم الجانبي الصغير؟
تُقلّب الطفلة أكوام القطع البلاستيكة الصغيرة. تتناثر هذه وتنتشر محتلةً مساحةً أكبر على الأرض. تعتمد على ركبتيها وتمدُّ ذراعها اليمنى لتصل إلى الباب الأسود الذي قفز أثناء التقليب. تتردد في وضعه، لا تعجبها فكرة أن تبدأ بالباب..
الباب يجب أن يؤدي إلى شيء، لذلك يجب أن يصنع الشيء الذي سيؤدي إليه الباب قبل أن يصنع الباب. الباب الفخم الجميل الذي لا يؤدي إلى شيءٍ خدعةٌ لا تدوم طويلاً.

١٣

يوم الأربعاء التالي حرصت هند على شراء نسخةٍ من الراية في طريقها للمدرسة وأخذت تتصفحها سريعاً حتى وصلت إلى المقال، وبينما كانت مستندةً إلى الجدار البعيد المواجه لطابور الطالبات الصباحي أخذت تقرؤه، لم يكن مسلياً كالسابق، كان يتحدث عن أهمية المحافظة على الحياة البرية في صحارى قطر، ويقترح استصدار قانون يحمى الأرانب البرية في الشمال التي تهددها هوايةٌ جديدةٌ تكونت لدى الشباب وهي صيد الأرانب البرية بواسطة الكلاب، أو مطاردتها بالسيارات. موضوعٌ جيد ولكنه ليس في شاعرية الزهرة المفقودة، لذلك فقد أكملته على مضض ولم تعد إليه ثانية..

الأربعاء الذي يليه: بالجريدة مقال عنوانه "فلنكرم أجمل ضيوفنا"، يتحدث فيه ماجد عن الطيور المهاجرة التي تأتي من دولٍ أخرى لتقضى المواسم الباردة في قطر، يتحدث عن أنواعها المختلفة وألوانها وجمالها ويدعو إلى عدم استقبالها برصاص هواة الصيد، يدعو إلى القراءة عنها وحسن استضافتها.. هل من قانون يحميها حتى تعود سالمة إلى بلادها؟

موضوع جميل إلا أنه محبطٌ أيضاً مقارنةً بموضوع الزهرة، ولكنها تجد تعليقاً صغيراً في نهاية المقال: "وصلتني رسالةٌ من القارئ فلان الفلاني يقول فيها إنه تعرَّف على زهرة البراري الأليفة التي كتبت عنها منذ ثلاثة أسابيع ويسرّه أن يساعدني في البحث عنها. أقدّم شكري للأخ فلان مع تحياتي الحارة."

لقد عاد إلى تلك الزهرة، لا زال يبحث عنها ويريدها، هل يبحث عني أنا أيضاً؟ أصدق أنه يبحث عني لأنني أبحث عنه أيضاً، ولكن قد أكون حالمة..

هل جنت هند؟ ولكنها فرصتها الوحيدة، ولم تنتظر اقتراح سارة بل أزاحت دفاتر الطالبات ونشرت أمامها على المكتب ورقةً بيضاء كتبت فيها رسالةً ووضعت عنوان الجريدة على الظرف وأرسلتها بلا تردد.

"وهذه رسالة أخرى أرسلتها الأخت فلانة تعليقاً على موضوع زهرتي.."

(زهرتي!!) ما أجمل هذه الكلمة، كيف يحب رجل زهرة كل هذا الحب؟

"تقول فيها إنها أيضاً تذكر الزهرة وتتمنى رؤيتها ثانية لأنها كانت تحبُّ شذاها، وتقترح أن نبحث عنها في البلاد المجاورة ونجلبها ثانيةً إذا وجدناها."

ولكن سارة علمت بالأمر واستنتجت أشياء كثيرةً أخذت هند تستمع إليها باهتمام ثم تستعيدها كلمةً كلمةً عندما تخلو إلى نفسها. ومواكب الأيام المرحة تبيت قريرة العين على حدّ نافذتها وأمام بابها وترافقها حيثما ذهبت.

يقول الأخ علّان إنه يذكر هذه الزهرة وإنه أيضاً يحنُّ إلى مرآها ويقترح أن يُنظِّم فريق الكشافة رحلاتٍ إلى مناطق بريةٍ مختلفةٍ للبحث عنها.

ويُعلَن عن رقم هاتفٍ يمكن الاتصال به عليه من الخامسة إلى السادسة والنصف كل أربعاء لاستقبال مكالمات القراء المهتمين بالبيئة وبزهرة البراري الأليفة.

تذكريني؟

آسف، ما اتذكرك...

آنا أرسلت لك رسالة باسم فلانة، وقبلها التقينا في دخان...

في دخان؟

إي، في المصنع...

آآه كنتي مدرسة العلوم؟

لا، كنت مدرسة العربي..

صوتك يشبه صوت مدرسة العلوم اللي كانت تتكلم معاي واللي كانت تشجع الطالبات على السؤال.

آنا اللي كنت أتكلم معاك واشجع البنات.

انتي اللي كنت لابسة جوتي رياضة؟

كانت هند تتمنى ألا يلاحظ حذائها ولكن ها هو يقول لها بفجاجة إنه فعل.

وإنتي فلانة التي كتبت لي عن الزهرة؟

لا، فلانة اسم مستعار... اسمي الحقيقي هند.

الله، اسم جميل جداً، أكثر اسم احبه... اسم جميل جداً جداً، وانتي بعد انسانة جميلة جداً، انتي...

وأحست هند أنها تغشُّ في الحكاية، لابد أن تكون الحكاية طبيعية ليست مصطنعة، لابد أن تأتي الأحداث تلقائيةً، وأن تجمع الساعة القدرية بينهما بلا غش، لذلك لم تجر ذلك الاتصال الذي وضعت له سيناريوهات كثيرة..

يجب أن تأتي الأحداث بشكلٍ طبيعيٍّ لتشعر أنها الأميرة التي يسعى إليها الأمير وليست المشعوذة التي تفتعل الأحداث، وعلى ذلك قاومت بعنف فكرة استخدام رقم الهاتف الذي يظهر في الجريدة أسبوعياً بشكلٍ استفزازيٍّ أمام المقال المتوّج بصورةِ ذلك الوجه النحيف.

آحلق لحيتي...

وتذكرت سارة أنها ليست لها لحيةٌ عندما انسابت أصابعها على ذقنها الأملس، فأكملت:

آحلق شعري إذا ما كانت فكرة التلفون فكرته، ما كنت أظن إنَّ ورا هالوَجْه البريء الهادي هالعقل المتكتك.

خرجت كلمة "متكتك" بقوةٍ توحي بمكرِ الموصوفِ فقطّبت هند وهي تقول باستياء:

احِلقي شعرك أو ازرعي لك لحية واِحْلقيها لأنه قطعاً مب مثل ما تظنين.

وليش الغضب الشديد علشانه؟

سارة، اشلون يتحمل ضميرك كل هذي الإدعاءات والظنون السيئة؟

وتضاءلت سارة حتى كادت تختفي ثم قالت:

ما أقصد انه يهدف حق شي مب زين، احتمال يكون له هدف نبيل، زواج مثلاً.

ما أظن انه من هالنوع.

نظرت سارة بعمق إلى هند ثم قالت بصوت منخفض:

خطأه الوحيد انه اختار إنسانة ساذجة مثلك.

ما اختارني يا سارة، انتي متوهمة.

في قاعة الاجتماعات بالإدارة كان المدير جالساً في مركز الصدارة وحوله مساعداه شاهين وفيصل، وأربعةٌ من الموظفين الذين كان قد ارتأى أن يشملهم الاجتماع: ماجد، حمد، شاكر، سرور.

المدير (يلتفت محاولاً أن تشمل نظرته جميع الموظفين):

أسئلة ثانية؟

صمت.

شكراً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يهبُّ واقفاً ويتجه إلى الباب هو والمساعدان فيصل وشاهين. يبقى في المكان ماجد وحمد وشاكر وسرور ويُسمع صوت لغطٍ بين الموظفين يزداد حدّةً، يلمم شاكر أوراقه ويخرج.

يهبُّ حمد واقفاً وهو يلملم أوراقه:

شنهو اللي يهم؟

يستغرب ماجد:

شنهو اللي يهم؟؟؟

إي، اش بيصير لو نقلوا فيصل مكان ثاني؟

عشان يحتل شاهين مكان المدير؟

ليش لا، هل في شَي ممكن نجنيه من بقاء فيصل؟

يرتفع حاجبا ماجد:

يعني فيه شي ممكن نجنيه من شاهين؟

يتثاءب سرور:

ما تلاحظون إنَّ كل جملة تقولونها تنتهي بعلامة سؤال؟

يتجاهله الاثنان ويكملان حوارهما.

حمد، ما تعرف الفرق بين فيصل وشاهين؟

وليش آشغل نفسي بالفروق بين اثنين ما يهمني أمرهم؟

يبتسم سرور بسخرية:

ما يهمك أمر شاهين؟

ويواصل ماجد:

خل شاهين، ما يهمك أمر العمل يا حمد؟

وليش يهمك انت؟؟

ييئس ماجد من جدوى مناقشة حمد ومن علامات السؤال، يتنهد:

ما احب أعيش مثل المخلوقات الأنانية، احب إني أشتغل، ويرأسني واحد يشتغل.

يبتسم حمد ابتسامةً ساخرةً يرمي بها ماجد ثم سرور ويتجه إلى الباب وقبل أن يخرج يلتفت ثانيةً إليهما.

على كل حال يا شباب احنا ما سمعنا كلمة واحدة في الاجتماع تدل على صحة هذه التكهنات، احنا نتكلم عن الإشاعات التي سمعناها، ويمكن تكون مجرد إشاعات.

يوجه ماجد الكلام لسرور:

آنا مستغرب إن الناس يتجاهلون اللي يسويه فيصل في القسم.

بس انت تعرف ليش حمد يقول هالكلام، شاهين من أنسابه وفيصل يضيق عليه الخناق.

تعتقد فيه شيء احنا كموظفين نقدر نسوّيه بهالخصوص؟

يتبسم سرور ضاحكاً.

فيصل يعلم علماً مبهماً أن نقله وشيك الوقوع، يعلم أن قراراته لا تروق لرئيسه ولا لمساعده الآخر، فلهما خطٌ آخرَ يختلف عن خطه، والمدير يريد من يؤيد سياسته، ولا يسير على هديها فحسب بل ويتفوق عليه في تنفيذها، ومع ذلك ففيصل لا يستطيع أن يتخلى عن قناعاته وإن تصادم مع الآخرين بسببها..

يَسمع طرقاً على باب مكتبه فيرفع رأسه عن أوراقه:

تفضل يا شاكر.

يدخل شاكر ويسلّم بابتسامةٍ عريضة، يرد عليها فيصل بابتسامةٍ أعرض منها.

هاي قائمة بتكاليف حفل العشا للوفد الإنجليزي.

يأخذها فيصل ويمرّ عليها بنظره.

جيّد، بس شنو هذي؟ ويسكي؟

أيوه، الفندق راح يقدمه بتخفيض كبير في السعر..

ويسكي؟!

هادول أجانب متل ما بتعرف..

هذي ما يغير من الأمر شَي، إحنا ما نقدم المشروبات الروحية في أيّ احتفال مثل ما تعرف.

نعم، بس هالمرة الضيوف أجانب..

واش دخل هذي في الموضوع، الأجانب ما يشربون عصير برتقال؟

بيشربوا...

استبدل الويسكي بعصير الفواكه.

لكن شاهين وقعها وانتهى الأمر، جيت أوريك اياها حسب رغبتك وزي العمل ما بيقتضي. ما في مجال لتغييرها.

يبتسم فيصل ساخراً وهو يشطب المشروب ويضع "عصير فواكه" مكانه.

وهذا التغيير تم، وهذا توقيعي قدامه، تفضل.

يأخذ شاكر الورقة في ضيقٍ وينصرف.

اليوم التالي لحفل العشاء، فيصل في مكتبه، يدخل عليه شاهين.

شفت؟

شنو اللي صار؟

انت تعرف اللي صار، ما كنت معانا البارحة؟ ما تم الاتفاق مع الوفد الإنجليزي.

وليش تطالعني بغضب، شنهو ذنبي، ما تناقشنا معاهم نقاش ودّي ومقنع؟ ما ناسبتهم ظروف عملنا، نجبرهم؟

لا، أعتقد انهم ما يشعرون بالترحيب الكافي، وهذي بسببك.

بسببي؟ ما كنت في منتهى الكياسة معاهم؟ ما استقبلتهم على الباب وماشيتهم للباب؟

لكن هم حسّوا ان احنا نستهزيء بهم يوم قدمنا لهم العصير بدال الويسكي الفاخر.

يضحك فيصل:

شاهين، لو اعجبتهم إمكانيات الادارة كان تمت الصفقة، مستحيل يفوتون فرصة جيدة علشان الشراب، خصوصاً انهم يعرفون خلفيتنا الدينية والثقافية، لا تتهمني من أجل الاتهام فقط.

ليش تقرر شي سبق إني خذت فيه قرار؟ ليش فرضت العصير، انت مستَقْبِل أطفال؟

يكتسب وجه فيصل تعبيراً جاداً مستاءً:

شاهين، لا تلصق في هالفكرة، انت أكيد في شي ثاني مضايقك، قول لي عنه بصراحة إذا كان متعلق بي، وعلى فكرة الخمر ما تحرم على الأطفال بس.

أرجوك يا فيصل، خل عنك الكلام العاطفي ولا تهددني بالدين، انت تعرف اني مب أقل تديناً منك.

على كل حال يا شاهين، آنا تصرفت وفق اختصاصاتي، آنا المسؤول عن الجانب المالي، وإذا تغير الحال مستقبلاً افعل ما بدا لك، أما آنا فأشوف الأمور بشكل مختلف تماماً، تصوُّرنا للمشروع ما كان مدروس كما يجب، ما خذ الوقت الكافي لدراسته، اتضح هالشيْ يوم أثاروا افتراضات ما كنا حاسبين حسابها، أو بالأحرى ما كنتوا حاسبين

حسابها لأنكم سويتوا هذه الدراسة في إجازتي وما عطيتوني اياها إلا قبل الاجتماع بالوفد باسبوع..

ماجد يؤيده تماماً، الأخلاق والقيم والدين مثل الهواء والأرض والأوزون والوضيحي والصقر ولا ينبغي أن يتسبب جهلنا الديني في انقراض قيمنا كما سبب جهلنا البيئي انقراض زهرة البراري الأليفة في أواخر السبعينيات ولا ينبغي أن يحرم من يولد بعد عام ٩٨ من القيم كما حرم من ولدوا بعد عام ٧٨ من زهرة البراري الأليفة. يبتسم فيصل في إعجابٍ شديدٍ بماجد إذ يكتشف أنه يسير على خطٍ واحدٍ يضمُّ أطراف خيوطٍ كثيرةٍ دون أن تضيع منه معالمه، يبدو أنه في النهاية ليس معقداً كما يظن بعضهم.

١٤
دقة أخرى لناقوس الخطر

كانت هند تبتسم ابتسامتها المشرقة أمام عيني ماجد المتسمّرتين على السقف، وكان ماجد يهم بالابتسام وهو ينتظر ما ستقوله له فإذا بوالدته تفتح باب غرفته فجأة وتطلُّ بوجهٍ ممتقعِ اللّونِ متقلّصِ الملامح شأنَ من يكابد أمراً عظيماً، ثم دخلت وجلست إلى جانبه على السرير. لم يصدق ماجد أذنيه وهو يستمع إلى أمه إذ تحدّثه بصوتٍ منخفضٍ تخنقه العبرة عن عمته، عمته الحبيبة التي طالما حيرّه حبه الشديد لها وأشعره أنه يذنب في حقِّ أمه إذ يزيد على حبه لأمه في كثيرٍ من الأحيان، لقد عاش في كنفها طفولته وشطراً كبيراً من مراهقته لأسباب لم تكن واضحة في ذهنه إلا أنه نشأ وهو يشعر أن هناك خللاً في الطبيعة يجعل له أُمّين في مكانين مختلفين، وعندما كبر علم أن إحداهما أنجبته والأخرى ربته..

في تلك اللحظات الحرجة كانت والدته تُعلمه أن عمّته في المستشفى بسبب حادثٍ خطيرٍ قد يودي بساقيها اللتين شُلّتا، وقد يستدعي الأمر أن تبترا إذا ما اتضح للطبيب أن ثمة خطورةٍ على حياتها من جراء بقائهما في حالتهما تلك.

بدت عمته وكأنها تتحدث بجزءٍ من ذهنها أما بقيته ففي حالةِ ذهولٍ تام. بصوتٍ هادئٍ أعاد إلى سمعها خبر الحادث الذي حدث لها، وعندئذٍ صمتت قليلاً وقد استوعبت الخبر، ثم أخذت الدموع تنساب من عينيها، وأخذ هو يقبل يدها المستقرّة بين يديه ويحاول التسرية عنها. أما خبر ساقيها فقد لزمه وقتٌ طويلٌ وكثيرٌ من الشجون والدموع قبل أن تتقبله، ولم يكن ماجد الطرف الآخر وإنما والدته، أما هو فقد اختفى كليةً من المكان يحاول التعايش مع حالة الرعب التي انتابته هو وأسرته.

تم الأمر؟

إي، قلت لها.. لكنها رافضة أيْ طبيب يقرّب من رجولها، وتفضل انها تموت بها ولا تعيش بلياها.

دخل ماجد غرفته. أغلق عليه الباب. يتخيل عمته بلا ساقين فيُشيح بوجهه علّه يزيل الصورة من مخيلته، ولكن تلك المخيلة تتبعه في كل مكان، ماذا سيحدث للساقين؟ وماذا ستفعل أمه نيلة، هل ستطلب دفن ساقيها أم ماذا؟ وكيف لها أن تعيش وهي تعلم أن جزءاً منها سبقها إلى القبر؟

شعر بانتفاضة تسري في أوصاله في حين انفتح الباب ووقفت أمه تنظر إليه نظرةً بها كثير من العطف.

مب رايح لها؟ هي محتاجة لك... تدري انها تحبك مثل ما آنا أحبك ويمكن أكثر.

آدري، بس ما اقدر ألحين.

من يومين ما رحت لها يا حبيبي، اشلون تقدر تتركها في هالوقت؟

يتنهد ماجد، كأن أمه لا تعرفه.

سألت عني؟

... لا، هي ما اتّكلم هذي الأيام، ما تقول أي شي، لكن أكيد انها تبي تشوفك، ما تعرفها؟

خلكم معاها يمه، لا تتركونها بروحها هذي لأيام.

وانت مب رايح لها؟

آنا ما اقدر، مستحيل آقدر أشوفها وهي متألمة هالكثر..خلها تروح البيت على الأقل.

مب رايحة البيت، أنا باجيبها عندنا، مالازم تقعد هناك بروحها وهي في هذي الحالة.

بتجيبينها؟؟!

حزّت في نفسه الكلمة كثيراً ورجا أمه ألا تضغط عليه في مسألة الزيارة، وعندما ذهبت عاد إلى السرير واستلقى عليه مكتوف الذراعين.

ويبدو أن الدنيا لم تكتفي بما آتت ماجد، فها هي الشائعات تصبح حقيقةً ويأتي قرار نقل فيصل إلى دائرةٍ أخرى، ويخلو منه مكتبه. في اليوم التالي أخذ شاكر وحمد يضحكان بمرحٍ وهما يهنئان شاهين بمناسبة تعيينه مديراً بدلاً من المدير الآخر الذي رقي أيضاً. ولم يستطع هو أن يهنئه في ذلك اليوم، بل شعر بالانهزام والبؤس الشديد، لماذا لا ينتصر الخير؟

اليومُ كئيبٌ بلا فيصل. سرور أيضاً متضايق وكذلك بعض الموظفين، أما المساندين لشاهين فكانوا يحتفلون في ذلك اليوم، وعندما جاءت الساعة الثانية عشرة لم يستطع ماجد البقاء أكثر من ذلك..

زهرة البراري الأليفة انقرضت وفتاته مختفيةٌ ولا من سبيلٍ إليها، وها هي قيمةٌ أخرى تختفي من حياته ومن البيئة التي يتمنى أن تظلّ نقيّة، فيصل.. نعم، فما فيصل الطيّب المخلص في عمله ذو المبادئ والقيم الدينية والأخلاقية العالية والنفس السمحة البسيطة إلا عنصراً من عناصر البيئة الخليجية التي ينبغي الحفاظ عليها وتجنيبها خطر الانقراض، وما نصر العناصر الرديئة الآخذة في الانتشار السريع على الجيدة إلا دقةً أخرى لناقوس الخطر.

شمس الظهيرة تتفجّر وهجاً وتسطع بقوةٍ على الشارع، ولو لم تكن تلك ساعة ازدحامٍ لصنعت بحيراتِ سرابٍ كثيرةٍ على الخط الأسود الذي يبدو بلا نهاية. ولكنها ساعةُ العودةِ إلى سكون المنازل، لذا فالخطُّ الأسود يعجُّ بالصناديق المتحركة... حمراء زرقاء بيضاء... كلها محمَّلةٌ برؤوسٍ تتوق إلى العودة إلى سكون المنازل...

الشمس تسطع بقوةٍ والأشياء شديدةٌ الوضوحِ تحتها. والوضوحُ الفائض يتكدَّس في زوايا العيون ويشكِّل عبئاً تنوء به الأحداق والجفون..

والزمن ليس زمن عصافير، فلماذا يهوي ذلك العصفور الصغير؟

لقد طار فجأةً من أعلى نخلةٍ على جانب الشارع وحطَّ في الحال في طريق السيارات، لكأنه برز إلى مضجعه..

السيارة الأولى أصابت جناحه وتركته يرفرف على الخط الساخن، الثانية احتوته بين عجلتيها الأماميتين لحظة، والخلفيتين لحظة ثم طارت، الثالثة...

يُشيح ماجد بوجهه، من يقوى على مواصلة النظر، من يريد أن يرى عصفوراً يسحق؟ لمع الضوء الأخضر أمامه. هل ينطلق إلى المستشفى لرؤية عمته؟ ما زال لا يستطيع.

ويأتي يوم خروج العمة وتحدث مشادةً حاميةً بينها وبين الأم. العمة ترفض رفضاً باتاً أن تذهب إلى بيت أخيها وترى أنها النهاية، وزوجة الأخ ترى أن من مصلحتها أن تذهب معهم. وفي النهاية، تيأس منها وتعود وحدها إلى المنزل لتروي لزوجها قصة عناد أخته. من ثقب مفتاح باب غرفة ماجد تأتي الأخبار بوضوح، حيث أخذت الكلمات تدخل واحدةً واحدةً من الثقب وتصل إليه وهو جالسٌ إلى المكتب.

ما ادري ليش رافضة تترك البيت وتقول يوسف يطل عليها كل يومين ثلاثة، يوسف فيه خير!؟

تبين الحقيقة يا شيخة فيه خير، الرجّال مسكين ما غلط في شي،
وهذا هو مريِّحها من ١٣ سنة. من يستحمل يخلّي على ذمته
مَرَة ما تبيه؟ بس... بعد ما نقدر نتطمّن.. هو صحيح بيمر
عليها مثل ما كان يسوي قبل الحادث، بس هذي ما يكفي..

بس لو عندها أحّد في البيت من الأهل كان ما اهتميت، لكن ما فيه غير الخدامة والسواق.

وانسلّت ضحكةٌ رجاليةٌ من النوع الغاضب الساخر من ثقب المفتاح:

يا هي بتصير مَلْعِبة، من يعلم اش بيسوون في البيت اَلحين، يدرون المسكينة ما تقدر تقوم من الفراش.

علي، لا تخوفني أكثر من فضلك، آنا بروحي متضايقة.

ثم تتنهد:

يا ليتها جابت لها ولد والا بنية...

إي، هذي وقت العيال، لو جايبة لها ولد كان بينفعها اَلحين..

وساد صمت، ثم أتى صوت الوالد ثانية:

آنا الساعة خمس باروح أحاول أقنعها مرّة ثانية، وانتي بَعَد حاولي معاها. ما اقدر أخليها بروحها هناك وهي في هالحالة... يتراوى لي لازم نجبرها تقعد عندنا على الأقل أول اسبوعين ثلاثة.

صمتت شيخة وهي تهز رأسها يأساً وحيرة، تعلم أن نيلة عنيدة، وكذلك صمت علي وتناول جهاز التحكم عن بعد وشغّل التلفزيون فانصرفت رؤوسهما إلى حيث الشاشة، وما هي إلا دقائق لا تزيد على العشرين حتى ارتفعت رؤوس الزوجين ناظرةً باستغرابٍ إذ خرج ماجد من غرفته وبيده حقيبة ملابس:

أُمي نيلة عندها ولد.

وأمام النظرات المندهشة يواصل بإصرار:

ما احد بيجبر أمي نيلة على ترك بيتها، كنت قبل خايف أشوفها مُقعدة، لكن بما ان هذي قدرها فآنا لازم اقبل الوضع، ألمي ما بيكون أكثر من ألمها، ولا حتى كثره.. ولا تخافين عليي يمه، آنا مب رايح بيت غريب، رايح البيت اللي تربيت فيه.

نظرت إليه الأم مستغربةً وقالت بتردد:

متأكد إنك تقدر...

متأكد!

وجاء صوت أبيه القلق:

شوف مايد، لا تضغط على نفسك أكثر من اللازم، بنشوف حل حق عمتك، وهي لها رب متكفل بها..

يبه، يمه، أرجوكم لا تقلقون أكثر من اللازم، آنا لو ما شفت نفسي أقدر ما فكرت أروح هناك.

أشرق وجه الأب أما الأم فضمته إلى صدرها وقبلته ثم تركته ينطلق بسيارته إلى المستشفى وأسرعت هي إلى الهاتف لتبشّر عمته بمقدمه.

بعد حديثٍ مشحونٍ بالعاطفة بين ماجد والعمة، صعد الابن العائد إلى الغرفة التي أُعدت له.. غرفةٌ جميلة، ورق الحائط زهرات زرقاء محاطةٌ بوريقات خضراء صغيرة.. جال ببصره في الغرفة، لم يكن ما بها جديداً إلا فرش السرير الذي توسّط الغرفة. هناك شيءٌ ناقص مع أن الغرفة جميلةٌ تحت أشعة شمس العصر التي بدأت تضعف، والتي وجدت لها طريقاً من خلال الجزء المكشوف من النافذة. وقف أمام النافذة وأطل على المساحة الفارغة في حديقة منزل عمته.. هناك أيضاً شيءٌ ناقص..

لم يفكر كثيراً في النواقص بل انطلق إلى خارج الغرفة فجاء إلى سمعه أصوات تأتي من الأسفل. لقد كان صوت أبناء زوج عمته وأمهم وكانوا قد دخلوا للتّو حجرة عمته. وقف برهةً ثم استدار متجهاً إلى غرفته.

مايد!

استوقفه ذلك الصوت الأليف، الصوت الحبيب الحنون، الصوت الذي ارتبط بإنسانٍ أحبّه كثيراً، صوت زوج عمته الذي عاش معه أول عشر سنين من عمره قبل أن يتزوج وتخرجه عمته من حياتها شيئاً فشيئاً حتى أصبح يأتي كالقريب من بعيد يزور زوجته المتمردة ومن معها، ثم خف التعلق به شيئاً فشيئاً بعد أن عاد إلى بيت أبيه، وإن ظلّ يحمل له الحب القديم، حب الابن للأب.

أهلاً يبه يوسف..

قبّله يوسف كثيراً وقبل هذا رأسه في ختام السلام، كان كلٌّ منهما سعيداً برؤية الآخر، جلسا في الصالة وتحدثا طويلاً وضحكا كثيراً وكأنهما نسيا دخول العمة المنزل قبل قليل على كرسيٍّ متحرّك.

وأيضا نسيت العمة في الداخل وضعها المأساوي وظهر شبه ابتسامةٍ وهي تسمع تضاحكهما وكأنه أتى بالكثير من الذكريات الجميلة، ولكن هذا الخيال تلاشى سريعاً قبل أن يتجسّد واقعاً وهي تتوجع من جرّاء ما تعانيه من آلام جسدية ونفسية بسبب ساقيها المشلولتين، وكبحت نفسها كثيراً وضُرّتُها تضغط على يدها بمحبةٍ واهتمام، واعتصرت من نفسها كلماتٍ سألت بها عن حالها وحال الأولاد، وخاصة مُفضَّلتُها أسماء التي جلست قرب رأسها وأخذت تمسح عليه وتقبلها بين الفينة والأخرى.

ثم جاء السائق ونهضت الضرة وقبلت نيلة على خديها وأطلقت سيلاً من الدعوات والوعود بالزيارات اليومية المستقبلية ومشت وخلفها أربعة أبنائها. ودهشت نيلة وهي ترى يوسف داخلاً إليها برفقة ماجد بعد خروج أسرته، ربما لأنه لم يتسنى له أن

يتحدث معها لجلوسه مع ماجد طوال الوقت، ستحتمله وإن كانت في حقيقة الأمر بحاجةٍ إليه. وشرب الثلاثة الشاي بالهيل والزعفران وتحدثوا ثم نهض ماجد إلى غرفته تأدباً وتحسباً لرغبتهما في أن يقولا شيئاً خاصاً بهما.

الساعة أصبحت الثامنة والنصف مساءً، يجب أن ينزل إلى عمته إذ حتماً ذهب زوجها لحال سبيله، ولكن النعال السوداء الكبيرة المقاس والتي تركها يوسف أمام بابها إذ دخل إليها كانت ما تزال حيث تركها أمام الباب، وكان الباب ما يزال نصف مغلقٍ كما تركه. صعد ثانيةً واتصل بعمته يخبرها بأنه سيذهب إلى المنزل ليحضر شيئاً وهبط سريعاً ثم اختفى من المنزل.

بالداخل تتململ نيلة في سريرها، متى يذهب هذا الرجل؟ ما الذي
في نيته؟ يوسف ينظر إليها، في عينيه أشياء كثيرة يريد أن يقولها، يفهم لماذا لفظته آنذاك، لقد كان لديها أسبابها التي تَفَهَّمَها رغم أنها لم تقُلها. لقد كُسر كبرياؤها وخشيت من المقارنة، لم تستطع التنافس مع فتاة تصغرها بعشرين عاماً فآثرت الانسحاب الشامخ الأنف، ولكن لأن هذا الشيء لم يُقل بالكلمات فقد عجز يوسف عن الرد عليه بالكلمات، لذلك لم تفهم أنه لم يستغن عنها يوماً كامرأة، وأن حبه للجديدة لم ينسه حبه لها..
فشلت كل وسائله غير الكلامية في إقناعها بذلك، وصبر على تمردها. لا يجد ثغرةً تجعله لا يحترم رغبتها، لقد تصرفت برقيٍّ أخلاقٍ وضميرٍ مع الضرة، لم تناصبها العداء، لم تسمم حياتها وتتسلط عليها بلسانها ونفوذها عند زوجها أو تحاول حرمانها من حقوقها كزوجة كما تفعل باقي الضرائر القدامى. وفتحت لها بيتها تزرها متى شاءت،

ولم تحقد على زوجها المسكين الذي صبر عليها سنين طويلةً عندما هفا قلبه إلى طفلٍ من صلبه، بل تقبّلت الأمر بصبر، ولم تصر على الفراق بل حرصت على إبقاء العلاقة الإنسانية ولم تمنع إلا العلاقة الزوجية التي شعرت أنه لم يعد بحاجة إليها وأنها أقل مما ستقدمه الأخرى...

لا يعلم كيف ولماذا بالتحديد، ولكنها اكتسبت قدراً هائلاً من
الاحترام يكاد يصل إلى مرتبة التقديس، وإن ظل عاجزاً عن توصيل ما يشعر به تجاهها إليها..
في تلك الليلة أيضاً تمردت الكلمات وأبت الخروج، ولكن أدمعه باحت بكل شيء، ومع سيل الدموع من أربع عيونٍ تدافعت كلمات كثيرةٌ ظلّت حبيسة الحناجر أكثر من عشر سنين..

ثم يعود ماجد إلى منزل عمته في الحادية عشرة مساءً. لابد أن أباه يوسف قد رحل الآن وهو يريد أن يطلّ على عمته، ولكن من بداية الممر رأى باب عمته مغلقاً والنور مطفأ، وأمام الباب المغلق النعال السوداء الكبيرة المقاس..
أخذ يمشي بهدوءٍ شديدٍ إلى الدرج ودون أن يعلم لماذا (أو ربما وهو يعلم) ارتسمت ابتسامةٌ على شفتيه وابتعد سريعاً إذ كادت تصبح ضحكة. لقد انتصر الزوج أخيراً على الزوجة المتمردة التي لفظته من ثلاث عشرة سنةٍ عندما تزوج زوجته الأخرى وفرضت عليه دور الأخ في حياتها. لابد أن الحادث الأليم أوهنها وجعلها تعجز عن المقاومة، أو ربما جعلها تدرك أشياء أخرى.. مسكينةٌ هذه العمة..

قضى يوسف الأسبوع الأول مع نيلة مستغلاً ضعفها النفسي الذي جعلها عاجزةً عن التمرّد القديم، ولكنها ألحّت عليه في العودة إلى زوجته الأخرى، وخاف هو إن خرج أن تتمرد ثانية فلا يستطيع العودة، لذلك فقد بقيَ يومين آخرين يرى فيهما أولاده مع أمهم في زيارتهم اليومية لخالتهم نيلة كما يسمونها. ولكنه خرج أخيراً بوعدٍ منها بأن تستضيفه نصف أيام الأسبوع. شعرت بانكسارٍ في البداية تقاوم به شعورها بخطأ تمردها الطويل الأمد، ولكنها أخذت تتكيف مع الوضع شيئاً فشيئاً خاصةً بعد أن اقتنعت بأن مكانتها القديمة التي جعلته يمتنع عن أن يتزوج عليها عشرين عاماً ما تزال موجودةً رغم تعلّقه بالأخرى وبأولاده منها، وبأن كلّ امرأةٍ لها خصوصيةٌ معينةٌ عند زوجها..
لا تعلم ما الذي يخبؤه لها القدر..

علمت هند بما حدث في إدارة أخيها وذهبت إليه تزوره في اليوم التالي مع أمها، وأخذ الجميع يشربون الشاي في غرفة الطعام بعد العشاء، كانت متأثرةً كثيراً. إذن فقد انتهت الحكاية. انتهت بالحزن الحتميّ الذي لا بد منه. دمعت عيناها إذ اعتراها شعورٌ بأشياء كثيرة، أكثرها لا قبل لها حتى بمحاولة التعبير عنه. وإذ هم كذلك يسمعون جرس الباب، ثم الخادمة تخبر فيصل أن بالباب شخصان يسألان عنه. يأمرها بإدخالهما إلى المجلس ثم يسرّح شعره ويذهب إليهما. بعد قليلٍ يعود إلى الجمع ويطلب من زوجته أن ترسل الشاي لضيفين من زملائه بالعمل الذي تركه جاءا يسلّمان عليه، ويعبران له عن

عدم رضاهما بقرار نقله. وتدخل الخادم ثانيةً معلنةً عن وصول السائق، وتهبُّ هند ومريم.

تتسمر هند لحظةً عند الباب، ما هذا؟ سيارة خضراء ثالثة؟ لابد أنها نفسها! نعم، وهاهو الرقم: ٨٩١٠!

ضحكت هند مع نفسها.

هند، اش فيك يمة، ليش تضحكين بروحك؟

لا، بس هذي السيارة كِلَّه اشوفها.. شفتها مرة مسوية حادث.

حادث؟ بعيد الشر..

لم تعد السيارة لغزاً، تستطيع أن تسأل أخاها عنها في الحال، ولكن الانتظار إلى يوم الجمعة قد يكون أفضل.

وها هو يوم الجمعة، وها هو الحديث يتطرق (ليس بالصدفة) إلى الزميلين الطيبين اللذين جاءا لزيارته، اتضح أنهما سرور وماجد، أما السيارة الخضراء ذات الرقم الظريف فهي.. لماجد..

كانت تلك الليلة مسليةً جداً ومدهشةً لدى هند.أخذت تعدِّد فيها الأشخاص الذين أصبحوا واحداً، فماجد هو رجل الرحلة، وهو بطل يوم الحادث ومن كان أمام سيارتها في الطابور بعدها بأشهر، وهو كاتب مقالات البيئة وأخو صديقة بدرية الذي كلمت عنه أخاها، الرجل المعقد الذي يجده أخوها شخصاً لطيفاً يستحق الضرب أحياناً عندما يكثر الحديث عن الغابات المطيرة، كل هؤلاء! مضحك جداً.

ولكن إثارة المضحك والمؤلم تتلاشى بمرور الأيام، وينتهي الضحك والإثارة ولا يظل إلا بقايا الألم لانتهاء مسلسل عمل أخيها نهايةً حزينة، لأن أثر الألم يبقى مدةً أطول من أثر أيٍّ شيءٍ آخر.. كما أن هناك الملل.

١٥

وقفت هند بجانب طابور طالباتها وأخذت ترقب الطوابير الأخرى من بعيدٍ وقد ملأت أذنيها همهمتها أو بالأحرى دمدمتها القوية التي لا يفلح أحدٌ في خفضها أو الحدِّ منها، ثم التفتت بمللٍ إلى الجانب الآخر من مبنى المدرسة ولم يكن أمامه أحد. استقرّ بصرها على المكيِّف الذي أطلت منه أعواد القشّ من أحد جوانبه كما أطلَّ منه رأس عصفورٍ صغيرٍ ثم عاد سريعاً إلى الداخل..

لماذا تعشُّ الطيور في المكيفات؟ لماذا تشوِّه الصورة الجميلة التي نرسمها عنها؟ لقد تعلّمَت في صغرها أن الطيور تعشُّ على الأشجار ولكن يبدو أنها تعشّ في أيِّ مكانٍ يرتفع قليلاً عن سطح الأرض، وربما كان هذا ما يجب أن يتعلّمه الصغار الآن..

تلتفت هند لترد تحية الصباح فتجد يد منى عبد الكريم ممتدةً إليها بوردةٍ بيضاء، وردةُ منى خاصةٌ جداً، بها طعم مزيدٍ من النجاح يستدعي ابتسامة أكبر مع كلمة شكراً..

فجأة نفخت المشرفة على الطابور الصباحي في المايكروفون عندما أغلقت جهاز التسجيل الذي كان يبث آياتٍ قرآنية، فالتفتت هند إليها ونسيت العصافير والوردة.

تبِعَت النفخةَ صرخةٌ في الطالبات ليصمتن قبل أن تقدم المايكروفون إلى طالبة الإذاعة الصباحية. ثم أخذت المشرفة تمر بين صفوف الطالبات ونظرتها الصباحية التعيسة على وجهها يكلِّلها عتَبٌ واستياءٌ إزاءَ ما ترى من ألوان قمصانٍ مخالفةٍ للزي المدرسي..

تتناسى العطور. لم تفقد حاسة الشم طبعاً ولم يتغير رأيها القديم في العطور وإنما عادت محاولة منع العطور في المدرسة لا تجدي مع الطالبات، خاصةً الكبيرات منهن.. بعضهن أطول منها وبعضهن أسمن منها وبعضهن أطول وأسمن منها، ومعظمهن –حتى الأقصر والأنحف منها– يتجاهلن تعليماتها، وينظرن إليها متبسماتٍ بتلطِّفٍ ليمتصصن غضبها وهن يمضغن ما وضعنه في أفواههن..

يغضبها منظر العلك يلاك في الصباح الباكر وفي الطابور وتأمر الواحدة منهن أن تبتلعه، وتمضي بسرعةٍ كي لا ترى أمرها يُهدر أو يمضغ في الأفواه. ولكنها اليوم تنظر إلى إحدى الطالبات الكبيرات وتسألها لماذا تضع مساحيق التجميل، وتضحك الطالبة الكبيرة وتعدها خيراً في الغد فتتوعدها المشرفة ثم تمضي بوجهها المبتئس ونظرتها المحبطة الفاقدة الحول والقوة حتى تختفي بين جحافل الطالبات.

ويرن الجرس مرةً أخرى ويبدأ زحف الطوابير إلى غرف الدراسة ويتحول نظر هند إلى العصافير ثانيةً، شيءٌ ما يبدو غير طبيعيٍّ إما في المناهج المدرسية وإما في حياة الطيور، أو على الأقل في المكيفات. ولكنها في النهاية تمضى خلف طالباتها لتبدأ يوماً جديداً.

"نحن صحراويون وحبنا للماء ليس بحاجةٍ إلى تبرير.. في طفولتي ومستهلِّ مراهقتي كثيراً ما كان أبي ينهانا عن نسيان الصنابير مفتوحة، وكم نهرتنا والدتي من أجل ذلك وقالت

إن الماء الذي يأتي من هذه الصنابير شيءٌ ثمين. وكم شعرت بقيمة الماء عندما كنت أنطلق لاهثاً من ملعب المدرسة وفي ذهني شيءٌ واحدٌ فقط: الماء! ثم أستمتع بسريانه بارداً في جوفي وأشعر أنه بؤرة هذا الكون في تلك اللحظات، ولكن كل ذلك لم يعلمني حب الماء...

حبُّ الماء تعلمته من حصانٍ لوالد أحد أصدقائي عندما ذهبت مع صديقين آخرين إلى مزرعة والد ذلك الصديق. عندما توقَّفنا أمام مربط ذلك الحصان كان يبدو متحفزاً في ذلك اليوم ومعكّر المزاج، تدل على ذلك نظرته الغاضبة الموجهة إلينا من جانبٍ واحدٍ وعينٍ واحدة، وحذّرنا ذلك الصديق من الاقتراب ودخل هو ونحن نرقبه من أعلى الباب..

اتجه إلى صنبور ماءٍ والتقط طرف الخرطوم الموصول به ثم فتح الصنبور وانطلق بالخرطوم إلى الحصان وأخذ يصبُّ الماء على سيقانه واحدةً تلو الأخرى. وكم كانت دهشتنا عندما رأينا النظرةَ المتحفزةَ تختفي تماماً من عيني الحصان ويقف ثابتاً مُستكيناً أمام الماء. استكانتهُ للماء لا حدَّ لها، حتى أنه سمح لنا بلمسه والتربيت على ظهره ووجهه. وتذكرت كل الصور واللوحات التي تصوِّر قطيعاً من الخيول تركضُ في الماء. هل هو عشقٌ للماء أم لشيءٍ آخر لا نعلمه.. مهما كان الأمر فإن لم يكن الماء غراماً أو سلطاناً فلا أقل من أن نقول إنه ذو تأثيرٍ كبيرٍ في هذا الحيوان الجميل، القوي، فما أعظم سرِّ هذه المادة التي خلق الله منها كل شيء حي."

أصاب هند الملل فمرت سريعاً على بقية المقال الذي ضمَّنه ماجد اقتراحات لوسائل لحفظ مياه موسم الأمطار وبناء خزانات في زكريت والمايدة. تنهدت بضجرٍ وألقت

بالجريدة قبل أن تكمله، عادت لا تحرص على قراءة مقال البيئة، ولا تعلم كيف النهاية.

بعد أن يتحدث ماجد قليلاً مع عمته بعد العشاء ينطلق إلى غرفته بالطابق العلوي ليقرأ أو يشاهد التلفزيون ثم ينام. ولكنه لا يستطع النوم باكراً الليلة بل ينزل وبه حنينٌ إلى كأسٍ من عصير البرتقال البارد.. من منتصف الدرج لمح النور. كان نور المصباح يأتي من حجرة عمته، عندما أكمل النزول سمع صرير عجلات المقعد في أحد الأروقة فتبعها. هناك، رأى وجه عمته مبللاً بالدموع. أسرع باتجاهها فيما أخذت تمسح أدمعها بملفعها إذ رأت ماجد.

اش فيك يمه نيلة؟

ما فيني شي، ودني حجرتي.

دار حول الكرسي حتى أمسك بيديه وتحرك به نحو الحجرة، وهناك أعانها على الجلوس في سريرها.. استندت إلى الوسادة وأخذت تكفكف بقية أدمعها.. عندما جلس قبالتها رأت وجهه الحزين.

لا تخاف عليي، آنا بخير يا حبيبي... ليش نازل الحين؟

نزلت اشرب عصير.

روح هات لك العصير.

وعاد بكأسين وأخذ مكانه ثانيةً، لماذا تبكين؟ أعلم أنه سؤالٌ في منتهى السخف، أعلم ما تشعرين به... ولكني ظننت أنك بدأت تتأقلمين. أتأقلم؟ كيف أتأقلم، إنني أشعر

بالعجز في كل لحظة، في كل لحظةٍ أنسى أنني أصبحت عاجزةً وأهُم بالحركة، وفي كل لحظةٍ أتذكر ما أصابني فأموت حسرة..

تغطي وجهها بيديها وتنتحب بلا تحفظ، وفي الجانب الآخر يغمض ماجد عينيه وهو يحاول السيطرة على عواطفه، وينجح إلا من دمعتين انسابتا في صمتٍ على خدّيه، ليتها كانت ليلة عمته مع زوجها، لربما كان أقدر منه على تهدئتها..

إن ما حدث لها لَشيءٌ يؤلم أيّ إنسانٍ فكيف بإنسانٍ مثل عمته؟ عمته النشطة الكثيرة الحركة والقوية، والتي تفعل عادةً ما لا يفعله الآخرون. يذكر كيف بحثوا عنها عندما اكتشفوا اختفاءها ذات يوم وهم في رحلة، فأين وجدوها؟ عندما يئس الجميع من العثور عليها تسلق ماجد السلم الحديدي خلف الباص الذي ذهبوا به فوجدها مضطجعةً على سطحه وقد وضعت تحتها فراشاً من الإسفنج والتحفت عباءتها. ويذكر كيف أنه كاد يقع من الضحك هو وباقي الجماعة المرافقة؛ كيف أقدمت تلك المرأة الممتلئة القوام على الصعود إلى هناك؟ كيف لامرأةٍ كهذه أن تتأقلم مع وضعٍ كهذا؟

بعد أن توقفت عن البكاء أخذت تتكلم عن حالتها الجديدة، أخذت تتكلم وتتكلم.

أظن أن هذا الموضوع يؤلمك ، ألا تريدين نسيانه؟

لا، بل أشعر أنني أريد أن أتحدث عنه في كل لحظة، إنه الأمر الأكبر في رأسي، لا أحد يفهمني. كلهم يريدونني أن أتحدث عن أشياء أخرى، يريدونني أن أنسى الأمر، كيف أنسى؟ لقد كانت أمك شيخة تخبرني بالأمس أنني بحاجة إلى ثلاجةٍ صغيرةٍ لحجرتي، تظن أن هذه الأشياء تهمني. لا تعلم أنها كانت منذ أسبوعين تتحدث وحدها، ولا أحد يعلم أنني إذا ما فتحت فمي فأنا لا أريد الكلام إلا عن مصابي..

دعوني أتكلم، إنني بحاجة إلى أن أتكلم كثيراً. لا أفكر في شيءٍ آخر في هذه الدنيا غير ساقيّ..

ألقى ماجد نظرةً على الساعة فوجدها قد اقتربت من الثالثة بعد منتصف الليل، فنظر إلى عمته بعينيه المرهقتين وقال:

تكلمي يمه، تكلمي..

وتكلمت العمة كثيراً ثم أطلقت زفرةً كبيرةً وصمتت. وفيما أخذ ماجد يمشي عائداً إلى غرفته بخطواتٍ مرهقةٍ سمع أذان الفجر يأتي من المسجد القريب.

١٦

ثم على الربوة جلسا

الأربعاء: ماجد يتحدث في مقاله عن المزارع ويوصي المزارعين بالبدء في الإعداد للمزارع العضوية بتنقيةِ التربة من الأسمدة الكيماويةِ، وبالاعتماد على الطبيعية لأن الأخرى تؤذي الأرض والإنسان و..

الأربعاء التالي: ماجد يتحدث عن تربية الدواجن، ويوصي بنبذ الأعلاف المصنعة التي تأتي من الخارج، والاعتماد على الأعلاف الطبيعية والنباتية في إطعام الدجاج. الدجاج؟؟

وتلقي هند بالجريدة، ترى أنها يجب أن تتوقف عن متابعة مقال البيئة. أيامٌ كثيرةٌ مرت. أيامٌ داكنةٌ وأخرى باهتة. ثم بهت كلُّ شيءٍ وكاد يتلاشى. لم تعد تلك المقالات تثير اهتمامها كما في السابق، ولم تعد ترى طائلاً من التفكير في ذلك الوجه النحيف الوسيم الشديد الجدية. يبدو لها أن كل شيء قد انتهى، ولم يعد ثمة مانعٍ من ذلك. إن الحياة رحبةٌ بل شديدة الرحابة..

وتقرر أخيراً ألا تسمح باحتجاز نفسها في صورةٍ واحدةٍ أكثر مما فعلت. عامٌ ونصف مدةٌ طويلةٌ جداً لا يستحق ذلك الشاب أكثر منها. وقد لا يعدو ذلك الرجل المتعدد الشخصيات كونه موقفاً انتهى بضحكها في ذلك اليوم عندما علمت بأنه صاحب السيارة الخضراء..

ثم هذا الملل، ماذا تفعل إزاءه؟ كيف تقضى كل إجازة الصيف هكذا في هذا الملل الذي استشعرته ولما ينقضي الأسبوع الأول منها؟ لذلك فقد أخذت تعد حقائبها لقضاء أسبوعين في الإمارات في بيت خالتها التي تزوجت واستقرت هناك منذ ثلاثين عاماً. في يوم السفر ارتدت ثوباً جديداً وحذاءً جديداً لامعاً له كعبٌ يجعلها أطول قامةٍ بسبعة سنتيمترات. وفوق كل ذلك ارتدت عباءتها الجديدة وأصبحت جاهزة.

في قاعة الانتظار التي تسبق الدخول إلى الطائرة فوجئت بامرأةٍ تناديها من بعيدٍ فإذا بها منيرة صديقة زميلتها بدرية. اندفعت إليها والابتسامة تعلو محياها وحيتها بحرارةٍ. ثم جلست المرأتان متجاورتين وجاء طفلا منيرة:

حنان وعبدالله، وما ابّي غيرهم.

الله يخليهم لك.. لكم أهل في الإمارات؟

لا، آنا رايحة اشتري عطور جديدة حق محلّي.. وسياحة في نفس الوقت، وهالمرة رايحة آنا وعيالي وأُخوي مايد اللي كلمتك عنه مرة.

رفعت هند رأسها إذ تذكرت كل شيء، فأخوها هو الموظف في مؤسسة أخيها كما أنه ذلك الموظف الذي رأته في دخان، وهو كاتب تلك المقالات عن البيئة والباحث عن

الزهرة، وصاحب السيارة الخضراء، والرابض في مخيلتها منذ مدةٍ طويلةٍ والموجود صورةً حيةً مبهرة أمامها في هذه اللحظات..

وإذ رفعت رأسها رأته ورأت أصبع منيرة يشير إليه:

هذا هو مايد، مايد تعال.

وشعرت هند بالخجل إذ اقترب منها وسلّم. ردت التحية بصوتٍ منخفض وأخذت منيرة تعرّفه بها.

هذي هند، اللي توسطت لك عند اخوها.

أهلاً..

وشعر ماجد وهند بشيءٍ من الحرج ولكنهما اصطنعا ابتسامة وشكر ماجد هند. ولم تعرف هذه ما تقول ولكنها قالت بعد سكتةٍ قصيرة:

أُخوي يقول إنَّ لو ما شافوه كفؤ كانوا مستحيل ياخذونه، يعني وساطتي مالها أي دور...

ابتسم ماجد ثانية مقدراً لما تقول ثم جلس على الكرسي المواجه وبعد قليل نظر إليها فجأة:

أخت هند، آنا شفتك في مكان؟

إي...

في دخان صح؟

صح.

وفي أحلام يقظته بين المروج المزهرة وفي صور الغابات المطيرة التي تضمها مراجعه وفي سقف غرفته.

وفيما أخفضت هند بصرها تهرّباً من مواجهة ماجد لمحت حذاءها الجديد وتذكرت الحذاء الذي رآها فيه أول مرةٍ فشعرت بسعادةٍ لأنه حتماً سيراه، ولا مانع من دفعه قليلاً إلى الأمام ليمسح صورة الحذاء الآخر. لم تكن تعلم أن ماجد لم يكن يرى شيئاً آنذاك، وأنه يعيش موقفاً مهولاً لا قِبَلَ له به، وأن الأحذية الجميلة ليست واردةً على الإطلاق في قائمة اهتماماته في تلك اللحظات.

في الطائرة قَدِمَت هند بعد اكتمال الركاب إلى مقعد منيرة حسب اتفاقهما السابق لدخول الطائرة، وجلست معها بينما جلس الصغيران مع خالهما في المقاعد التي أمامها مباشرة. هند سعيدةٌ جداً، فرق هائل بين أن تسافر وحيداً وأن تسافر مع مجموعةٍ فيها شخصٌ تنتظر أن تراه منذ خمسين عاماً..

دويّ الطائرة المتواصل لا يزعج هند التي التفتت إلى النافذة وأخذت تتأمل السحب النقيّة الهشّة حول النافذة والسماء الزرقاء والمساحات الرملية الواسعة أسفل كل ذلك. وترتسم على محيّاها ابتسامةً أو روح ابتسامة وهي تتأمل ذلك المشهد، وكيانها مليءٌ بشيءٍ تريد أن تهضمه، وتحتاج وقتاً كافياً لهضمه. دويُّ الطائرة لا يقطع عليها ذلك، بل لا يزعجها على الإطلاق. ما أزعجها كان صوت منيرة وتربيتها بين الفينة والفينة على ساقها لتلفت انتباهها (وتقطع عليها عملية الاستيعاب) لامرأةٍ مرتديةٍ شيئاً غريباً أو لتقدم لها شيئاً أو لتتحدث في أيّ شيء.. في تلك اللحظات بدأت هند تشعر أن منيرة سلاحٌ ذو حدين!

بعد قليل أخرجت هند مصاصاً من حقيبتها وقدمته لمنيرة فأخذت هذه واحداً وهمت بردّه فأشارت لها أن تقدمه لأخيها فنادته من الفراغ بين الكرسيين وهي تقول لها إنه لا يحب هذه الأشياء عادةً. وبالفعل حرّك رأسه رفضاً حالما رأى يدها الممدودة به، فقالت له أخته تبريراً لفعل شيءٍ تعرف نتيجته:

من عند هند، قلت لها إنك ما تحب المصاص.

عندئذٍ امتدت يد ماجد فالتقطت أنبوبة المصاص واستخرجت منه واحداً. والتفت إلى هند يشكرها فطلبت منه أن يعطيه الطفلين. استدار وقدمه للطفلين، وعادت هند إلى النافذة، يلزمها وقتٌ طويلٌ لاستيعاب كل تلك اللحظات..

لماذا يصبح الناس فجأة مهمين إلى هذا الحد ويصبح كلّ ما يفعلون شعوراً غامراً يحتاج إلى اجترار؟ هل هي مواسم معينةٌ في الحياة تجعلهم بهذه الجاذبية؟

كذلك كان يقول ماجد في نفسه وهو يستشعر طعم النعناع في فمه، لماذا يصبح بعض الناس فجأة قوةً آسرةً نستمتع بالانحناء لها؟

في الممر الممتد من الطائرة إلى المطار ووسط خطوات الناس المختلفةِ الوقع شعر ماجد وهند أن الأحداث منذ تلك اللحظة وإلى الأبد ستكون مشتركة، لقد سمعا إلحاح منيرة على هند أن تزورهم في الفندق ودعوتها لها أن تخرج معهم في السيارة التي يزمع ماجد استئجارها لأنهم سيذهبون إلى أماكن كثيرةٍ وجميلة. وعدت هند بمحاولة استراق ما تستطيع من الوقت من خالتها، ولم يفت منيرة أن تأخذ عنوان الخالة.

التقطت هند زجاجة طلاء الأظافر من أمام مرآة ابنة خالتها وأخذت تتأملها بإعجاب:

لون جميل جداً، رائع.. تخيلي يا حصة إني من سنين ما استعملت هالأشياء؟

ليش؟

ما افكر أطوّل أظافري، وأصلاً آنا مدرسة وأظافري ساعات تِسْوّد من الطباشير وقلامة اللوحة البيضا..

زين، ألحين لا عندك تدريس ولا طباشير، خلني أحط لك..

وفيما شرعت حصة في طلاء أظافر هند أخذت هذه تتأمل أظافرها المطلية وهي تبتسم ابتسامة طفلٍ لدى مرأى لعبةٍ مفرحة..

قبيل أذان المغرب جلست منيرة مستندة إلى مسندٍ مزخرفٍ في المجلس العربي ببيت خالة هند، على يمينها هند بأظافرها الجديدةِ ذات اللّون البهيج، وعلى شمالها أم سعود حماة خالتها التي ارتدت ثوباً مشجّراً ومعطراً بدهن العود والبخور وقد ظهر من تحته سراويل مطرزةٌ بخيوطٍ ذهبيةٍ جميلة. جدار المدخل الزجاجي يظهر الحوش المبلّط وجزءاً من الحديقة، والجميع يرتشفون الشاي من أكواب شفافةٍ صغيرة.

لا، تعالي انتي معانا يا الغالية، لكن بنيتنا توها واصلة من الدوحة وبعدنا ما استانسنا وياها.

واصلة من يومين يا ام سعود، واحنا بنروح كم ساعة بس وبنرجعها لكم.

وبعد بيت جيرانّا عازمينها باكر.

خلهم يعزمونها عقب باكر، ما فيها شي.

ابتسمت أم سعود وأخذت تعدل حافّة ثوبها شبه الشفاف وهي تفكر في الخطوةِ القادمة.

ها، اش قلتي يا ام سعود؟

بعد شاقول يا الغالية، برايها وبرايكم.

هند مبتهجةٌ بما سمعت، ومنيرة ممتنة.

بس باكر يا ام سعود.

لكن عقب يومين غداكم كلكم عندنا، انتي والعيال وأخوك.

تامرين يا أم سعود.

وهبت أم سعود قائمةً وهي تمسك طرف ثوبها الطويل ومشت تتهادى بجسدها الشديد الامتلاء تنادي الخادم لتحضر القهوة.

السمك الصغير سريع الجريان في المجرى المائي الدقيق والطويل، كان من الصعب أن تصطاده حنان وأخوها في علبة أناناس فارعة. وبدت العملية مغريةً جداً ومليئةً بالتحدي والإثارة فتناولت هند العلبة وأخذت تحاول، وبعد عشر دقائقٍ أدركت أن تلك العملية أصعب مما تتصور. تلك هي الأسماك تأتي في سربٍ طويل، سربٍ طويلٍ جداً من الأسماك الصغيرة الحقيرة الشأن التي لا يبلغ طولها الأصبع والطافية قرب السطح والتي تبدو في متناول اليد، ولكن من يحاول صيدها يجدها حقاً تكاد تكون في بعد النجوم. عندما رفعت هند يدها من الماءِ وهبت واقفةً ونفخت في إحباطٍ وغيظٍ رأت يداً تمتد إليها وتلتقط العلبة منها. التفتت إلى صاحبها فإذا هو صاحبها، ابتسمت في حرج:

كنت اظن ان صيد السمك الصغار سهل بهذي الطريقة.

طبعاً سهل، خليني أجرب.

شمّر أكمام ثوبه الناصع البياض واقترب بأناقةٍ من الماء. غاصت يده مراتٍ ومراتٍ ولكنَّ الأسماك الصغيرة كانت في كلّ مرةٍ تتمكن من الهرب بأسلوبٍ فنيٍّ يبدو وكأنه جزءٌ من مسارها الأصلي. كانت تستخفُّ به، لذلك أصبح الأمر تحدّياً ومسألة حفظِ كرامةٍ أمام هند. وعليه أصبح يحاول بجديةٍ وكاد عقاله يسقط في الماء لولا أنه تداركه في آخر لحظة. وأخذت هند تضحك. لقد سئمت من محاولات كتم ضحكها، ولكنه كان يزداد تصميماً في كل لحظة. غيّر موقعه عدة مراتٍ وكادت عشر دقائقه تنتهي. وملّت هند وابتعدت عن الحافة إذ يئست من قدرته. وفي تلك اللحظة وقف هو أيضاً وعلى وجهه ابتسامة الانتصار. نظرت هند إلى العلبة في يده ولم تصدّق أن فيها شيئاً، ولكنه اقترب منها وقدمها لها. أمسكت العلبة وابتسمت للسمكة الصغيرة التي كانت تدور في العلبة بحيرة، وشعرت بالإعجاب بمهارته، ثم التفتت لتريها الطفلين ولكنهما كانا قد ملّا من اللعبة وابتعدا.

شِنسَوّي فيها؟

ما ادري، ظنيت انك تبينها.

ابتسمت ثانيةً وهي تنظر إلى السمكة.

الناس شيسوون بهذي السمك في العادة؟

مِتوت.

متوت؟؟

إي، سمك صغير مملح ومجفف، بس نحتاج كمية، خيشة تقريباً.

ابتسمت هند وأخذت تنظر بمودةٍ للسمكة الصغيرة الحائرة، ووجد ماجد الحل البيئي.

نرجعها للماي أحسن؟

ارتاحت هند لهذا القرار وتنفست الصعداء وهي تعطيه إياها ثانيةً، وعادت السمكة تجري وراء السرب. وتذكرت هند سربها فأخذت تتلفت.

وين راحوا اليهال؟

كان الطفلان يجريان باتجاه أمّهما التي كانت تعد الطعام، فأخذت هند تمشي باتجاه الجميع ومعها ماجد. تنظر إلى ثوبها المتسخ عند الركبتين وكمّيها المبتلين ثم تنظر إلى ماجد فتنتابها نوبة ضحكٍ أخرى.

اشلون تحاول كل هالمحاولات وثوبك ما يتلَعْوَز؟ ولا فيه نقطة ماي ولا طين؟ لو سعد أخوي مكانك كان التراب والماي وصل لحد راسه..

نظر ماجد إلى ثوبه الناصع البياض وأحسّ بالحرج الشديد وبأنه ينقصه شيءٌ ما، بقعة طين مثلاً، أو على الأقل شيءٌ من التراب الجاف، وود لو أنه ألقى بنفسه في بركة طينٍ وتمرّغ فيها قليلاً ليبدو منظره طبيعياً لا يستجلب الاستغراب، ولكنه إذ لم يستطع تنفيذ ذلك اكتفى بالابتسام.

لاحظتي إن المكان وايد حلو وهادي؟

طبعاً... بالمناسبة، آدري إنك مهتم بالبيئة، ساعات آقرا مقالاتك.

اش رايك فيها؟

حلوة، خصوصاً المقال اللي عن الزهرة.

ابتسم ماجد وهو يتأمل المروج أمامه.

لهالدرجة انت تحب البيئة؟

آحس انّه واجب انّ احنا نحافظ عليها.. وآنا مخلص جداً للطبيعة والخضرة.. آنا حتى سيارتي مختارها خضرا.

اعرفها.

تعرفين سيارتي؟؟!!!

طبعا! رقمها ثمانية تسعة عشرة.

ماجد مأخوذٌ بما سمع، تتقاتل في نظرته الدهشة والضحكة والسرور والشعور بأنه مُستباح ومُراقب، وتواصل هند:

شفتها عدة مرات.. ليش مستغرب هالكثر؟ البلدكم سيارة خضرا فيها.

اقتحام! ولكنه اقتحامٌ ممتعٌ لأنه من هند، فلنتناسى ذلك، ولكن:

كأنك ما تحبين الأخضر؟

احبه شوي بس مُب في السيارات.. في السيارات أحب اللون الأزرق.

بس؟

ممكن إذا ما حصل الأزرق السماوي اتقبّل الكحلي أو الفضي... بس يبدو إنك بتخليني ابتدي أحس أكثر باللون الأخضر، واتقبّله حتى على السيارات.

يلتفت ماجد إلى هند ثم يهرب ببصره سريعاً إلى الأفق.

تدرين إني أحس إني أعرفك من زمان، وما ادري هل انتي من النوع اللي ينوخذ عليه بسرعة ويبيِّن مألوف والاّ احنا كنا في روضة مشتركة... في أي روضة كنتي؟

ضحكت هند من ذلك الخيال:

آنا عمري ما دخلت روضة، دخلت المدرسة رأساً، بس سَعّود أُخوي راح روضة.

كم عمره؟

١٥ سنة وهو أصغر واحد وأشطن واحد.

وفيصل أكبر واحد؟

وأطيب واحد.

فعلاً فيصل من أطيب الناس اللي شفتهم.

إي، أمي تحبه وايد.

وعندما بدت النظرة المستغربة على عيني ماجد أكملت قائلة:

هو أخوي من أبوي بس، أمه توفت وعمره ١٢ وأبوي تزوج أمي بعدها بسنة.

ثم على الربوة جلسا، كانت الشمس هامدةً إذ قطعت شوطاً بعيداً نحو الغرب والهواء يداعب الملابس بمكرٍ شديد، وبمكرٍ أشدّ قامت منيرة من مكانها بقربهما متشاغلةً باللحاق بولدها فامتدت يد هند نحو حنان وأجلستها قربها. كان ماجد يضحك لأتفه سببٍ كما تفعل هند تماماً ولكن الحزن يظلّ يُطلّ من خلف خلف العينين، ذلك لا يتنافر مع ذوقها ولكنها تكاد تموت من الفضول. وعندما تتناسى الحزن في العينين تبرز أسئلةٌ أخرى كثيرة. أصبحت تريد معرفة كل شيءٍ رغم خوفها من الصدمات ومن تشويه تلك اللحظات البريئة، ثم في النهاية استجمعت قواها وسألته:

كم عمرك؟

هكذا أطلقتها كالقنبلة، هكذا شعرت بالسؤال ولكن الرجال قد لا يرون الأمر كذلك، ابتسم وهو لا يكاد يخفى استغرابه:

٢٥

اطمأنت قليلاً لأنه على الأقل ليس أصغر منها كما كانت تخشى ولكن يدها الخفية كانت ما تزال مستقرةً على قلبها مشفقةً عليه من الصدمات:

يعني انولدت سنة ٧٢، انولدت في بداية السنة والا في نهايتها؟

في النص تقريباً... ليش؟

ازداد ضغط اليد الخفية على القلب واليد الظاهرة على يد الطفلة وهي تطلق القنبلة الأخرى.

لأني انولدت في السنة اللي انت انولدت فيها، وفي وقت قريب من وقت ولادتك.

وأخذت تنظر إليه، سيكرهها، سينفر منها، سيعتبرها عجوزاً في الغابرين..

ولكنه ابتسم مسروراً:

في نفس السنة؟ آنا انولدت في١٥/٧.

هربت الدماء من وجهها وهي تقول مصدومةً: آنا انولدت في نفس اليوم.

كبرت ابتسامته وتحولت إلى بوادر ضحكة:

الساعة ٤ الفجر؟

انت انولدت الساعة ٤ الفجر؟

يرد وهو لا يكاد يصبر حتى يسمع إجابتها:

إي إي!

انفرجت أساريرها بابتسامةٍ كبيرةٍ سعيدةٍ نديةٍ واستعاد وجهها الاشراق بعودة دمائه الهاربة منه.

انت أكبر مني! أكبر مني بساعتين.

وضحكت كثيراً وضحك معها. كان يشعر ببهجةٍ شديدةٍ لأنها تضحك معه، وكانت تشعر بسعادةٍ غامرةٍ لأنه يكبرها بساعتين.. كانت قد قررت ألا تفكر في إنسانٍ يكبرها بأقل من خمس عشرة سنة، ولكن يمكن التغاضي عن خمس عشرة سنة إلا ساعتين، لا يزال قرارها محفوظ الكرامة!

صمت ماجد قليلاً وصمتت هي وآثار الابتسامة على وجهها وأخذت تنظر إلى الأفق البعيد، أما هو فقد أخذ ينظر إلى أعماق نفسه حتى كاد يتركها هي وابنة أخته وحدهما، ولكنه استفاق سريعاً والتفت إليها فإذا بها تنظر إلى الأفق مبتسمةً، فابتسم هو أيضاً..

بدا أنه شعر بمزيدٍ من القرب منها، لأنه يرى أن للزمن رموزه الصادقة، لقد كانا في مستشفى الولادة معاً، أطلا على هذه الدنيا في يومٍ واحد. لابد أنه أول "رجلٍ" رأته، وتلك الألفة الغريبة وغير المبررة، هل تعنى أن الإنسان يشعر بغيره وهو وليدٌ لا يتجاوز عمره الساعتين؟ هل اختزنها في ذاكرته منذ ذلك الآن أم أن الدنيا جمعتهما في ذلك المستشفى توطئةً لجمعهما ثانيةً في المستقبل؟ لا يعلم شيئاً ولا أحد يعلم شيئاً، وشعر بأن عقله صفحةٌ بيضاء ليس بها خيطاً واحداً يفسر به الأشياء، وشعر أن عمره لا يتجاوز الساعتين..

ولكن أشياء كثيرةً تحدث في الساعتين، الساعتان لا يمكن الإستهانة بهما، هذا منطق هند في تلك اللحظات الصافية وجميع ما تلاها. حتى شعورها أصبح يميل إلى التعامل مع ماجد وكأنه يكبرها بخمسة عشر عاماً.

* * *

اللبنة الأولى.. جمال البداية، الشيء الذي يجعلني أصمم على الوصول إلى النهاية.

اللبنة الثانية، الثالثة... الـ.. ها قد اكتمل أول صف. اللبنات الأولى كلها حمراء. الصف الثاني سيكون أبيض، البيت كله سيكون أبيض. الأبيض لونٌ جميلٌ لأنه يتماشى مع جميع الألوان. يحب الجميع كالصديق الطيب ويجعل الألوان التي يصحبها أكثر إشراقاً.. مرآه يجعلني سعيدة...

والآن يجب أن نضع نافذةً هنا، ها هي.. وأخرى هنا، ها هي.. وثالثةً على هذا الجانب، ها هي.. والأخيرة في الخلف... أين هي؟

تقلّب الطفلة اللبنات مرة أخرى وتصنع ضجةً صغيرة. تزحف على يديها وركبتيها متفحصةً كل ما على الأرض من القطع البلاستيكية، لا أثر للنافذة الرابعة..

تفتح الأدراج واحداً واحداً وتجدها أخيراً في الدرج الأخير بين الحيوانات وأقفاصها، أحياناً تخطيء الأمهات أخطاءً مضحكة. من يضع نافذةً في حديقة الحيوان؟ أقفاص الحيوانات ليست بحاجة إلى نوافذ.. الأقفاص كلها نوافذ، ولكن لا فائدة منها.. ميزة النوافذ أنك تستطيع أن تغلقها متى شئت.

١٧

مباراة الختام

في غرفة النوم بالطابق الثاني ببيت الخالة أخذت هند تتأمل المنازل على الجانب الآخر من الشارع المتسع... أحدها كان كبيراً وله حديقةٌ لا يظهر من سورها إلا نخلات خمس قد وقفن في اصطفافٍ غريبٍ وكأنهن طلاب مدرسةٍ مهذبين في طابور مدرسي، متساويات الأطوال شبه ثابتات الأوراق في تلك السويعات الخالية من الرياح، مستسلماتٍ لنور شمس الظهيرة الخارق.. ثم هنالك مدرسةٌ يفصلها عن تلك المنازل شارعٌ يكاد يخلو من السيارات. لقد كان وقت قيلولة الأشياء. حتى السحب القليلة المتناثرة بعيداً تبدو ناعسة... كان الكون كلّه مستريحاً وكذلك هي. كانت في سلامٍ داخليّ وخارجيّ... تشعر أنها امتلكت هذا الكون المستريح، ولم يبق إلا أن تغفو هي أيضاً... إن استطاعت..

ولكن الأيام المرحة تمر سريعاً كعادتها ويأتي وقت الرحيل. هذه المرة تختلف المواعيد وتسبق طائرة هند بيومين، ولكن ماجد كان قد غاب عن نظرها قبلها بثلاثة أيام. عندما اتصلت تودعهم تمنت أن يرفع هو سماعة الهاتف في غرفة أخته بالفندق ولكن منيرة انقضّت عليها بوحشية. حاولت هند إخفاء نغمة صوتها المنكسرة بفعل الإحباط

لدى سماعها صوتها بكل ما أوتيت من قوة. أما منيرة فقد اعتذرت عن عدم قدرتها على المجيء لوداعها لأن البرنامج ملآن. فما كان من هند إلا أن طلبت بخنوع أن تكلم الصغيرين لتودعهما وبعدهما طلبت الخال، ولكن الخال لم يكن متوفراً لها في تلك اللحظة..

انصرفت إلى غرفتها المطلة على الجانب الآخر من الشارع وملامحها تعبر عن خليطٍ من الحزن والغضب. كانت غضبى من ماجد لأنه لم يحرص على أن يكون موجوداً لتكلّمه، وبالطبع لن يكلمها هو.. قررت أن تنسى أمره وتترك له الخطوة القادمة، وان كانت شبه متأكدة أنه لن يخطوها.

قبل تلك الثلاثة أيام الكئيبة كانا يتحدثان في مكانٍ معشوشبٍ ومليء بالأشجار، وأمامهما غير بعيدٍ كانت منيرة تنقع قدميها في مياه مسافي الممتدة كالنهر الشديد النحافة. وحنان وعبدالله كانا يلعبان بعيداً عن الجميع. أما هما فكانا يتجنبان العيون لأنها لا تحفظ الأسرار ولكنها تغافل القوى المسيطرة وتبوح، وكذلك تفعل الألسنة أحياناً بسقطاتها.

أخذ ماجد يتحدث بتحفظٍ وبين تارةٍ وأخرى يغافله لسانه فينطلق على سجيته...

"عندما رأيتك ذلك اليوم في دخان شعرت أننا سنلتقى لا محالة، وشعرت أنني أوشك أن أجد ضالتي، لم أكن قبلها أشعر أن لديَّ ضالّة من هذا النوع... أعنى... أوشك أن أكتمل وتنسد ثغراتٌ كثيرٌ في حياتي... أعني أنني.. وجدت صديقاً أنسجم معه.. أخاً.."

وأطبقت شفتاه على باقي الكلمات، ربما لم تكن ثمة كلماتٍ أخرى، أو ربما ثمة كلماتٍ أطبقت عليها حنجرته... كان صوته مفعماً بالانفعال والعاطفة وذلك الحزن الخفيّ ما يزال في عينيه، بدأت هند تشعر بالإحباط. كانت روحها تصعد عالياً مع الكلمات الكثيرة التي قالها في ذلك اليوم ثم إذا بها تتهاوى ثانية إذ تحولت في النهاية إلى أخ! ولكنه ابتلع ريقه ورفع إليها بصره ثانية.. تمنى لو أتيحت له وسائل أخرى يوصل بها ما يعتلج في صدره من المعاني علّه يقنعها بها.

هند، أرجو إنك ما تسيئين فهمي، احس اني ما اقدر اتكلم معاك في كل شيء... على الأقل مب اَلحين.

وتسمرت عليه عيناها المتسائلتان، وارتبط لسانها. إن داخل هذا الإنسان أشياء كثيرةً غامضةً لا تُفكّ طلاسمها بسهولة. لقد كاد يبوح منذ لحظاتٍ بكل شيءٍ ثم توقف وقال إنه لا يستطيع أن يخبرها بكل شيء، لماذا؟

آكره التسرع، التسرع يحطني في مشاكل، وما نبي مشاكل ثانية... والأهم من كل شي إني أخاف أسبب لك انتي مشاكل.

لي آنا؟ اشلون؟

ما ادري اشلون..

ونزل نظرها تدريجياً حتى استقر على الرمال المرتوية والأعشاب التي انحنى بعضها تحت البساط الذي يجلسان عليه، وعاد ماجد بنظره إليها يتأمل ملامحها الحائرة.

لا تحتارين من فضلك، آنا تسرعت وقلت لك أشياء ما كان لازم أقولها اَلحين.

ليش ما لازم تقولها الحين؟

يتنهد ماجد:

إنتي إنسانة رقيقة وطيبة، وتستاهلين كل خير...

ما فهمت...

وعندما لم تسمع رداً عادت ببصرها إلى التراب والأعشاب وهي تفكر: ألهذا السبب يقولون إنه معقد؟ هل به خللٌ ما؟ لا بد أن به خللاً ما، لا بد! ثم شعرت بأنه علم بما يدور داخلها وخيّل إليها أنها رأت نظرةً عاتبةً في عينيه فندمت وقررت أن تثق به. ومرت لحظات صامتة..

آنا وايد سعيد لأني شفتك، وعمري ما قابلت ولا أظن اني ممكن أقابل واحدة مثلك.

شكراً.. آنا بعد عمري ما قابلت.. واحد مثلك.

انتهى الكلام ونهضت هند متجهةً إلى منيرة فهبَّ ماجد وأخذ يمشى وحده بعيداً.

ذلك ما حدث في آخر لقاءٍ وها هي في المطار تتلفّت علّها تراه، لعلّه احتاج إلى رؤيتها مرةً أخيرةً ولكن لا جدوى. ودعتها خالتها وابنة الخالة وجارتهما المرحة بأعينٍ دامعةٍ ثم جلست وحيدة في الطائرة. في تلك المرة كان كل شيءٍ مختلفاً..

حتى دويّ الطائرة لم تكن به رنة مرحٍ ومغامرةٍ بل كان كزئير النمر، وكان مزعجاً هو وثرثرة الناس من حولها التي تأتي كطنين هوام الغابات. وأمامها أخذ بعض الأطفال يتضاحكون ويتقافزون كالقردة، وظلّت هي شديدة الصمت كالزرافة. أما من استحوذ على نصيب الأسد من ذاكرتها في تلك الرحلة فقد كان بعيداً في مكانٍ مجهولٍ بالأسفل تائهاً في غابة الذكريات والتساؤلات والحيرة...

وعندما قررت أن تنسى كل ذلك برز رأسٌ من المقعد أمامها بشكلٍ مفاجيء شحذ ذاكرتها من جديدٍ بعد أن جعل قلبها يخفق مع أنه لم يكن الرأس الذي احتل المكان في رحلة الذهاب، بل كان وجهٌ متطفلٌ نظر بفضولٍ ثم عاد يعدل جلسته. فشعرت بالأسى وعادت إلى النافذة مهزومةً تنظر إلى المباني النحيفة التي تركتها منذ قليلٍ تناطح السحاب.

غاص جسد هند في أحد الكراسي الوثيرة بالمنزل وألقت برأسها إلى الخلف وبدت ساكنةً تماماً وغير مكترثةٍ بشيء. ولكن رأسها كان يموج بالمشاهد الحيّة الشديدة الوضوح التي حدثت في الماضي القريب...

أتعلمين يا هند بماذا أشبه الدنيا؟

إنها مهرجان، مهرجانٌ احتفاليٌّ تشترك فيه الأيام والليالي...

دنيانا هذه مهرجانٌ احتفاليٌّ كبيرٌ من الأحداث... الفاقعة...

نعم فاقعة، صارخة، بعضها جميلٌ وبعضها سقيم، أكثرها سقيمٌ أحيانا.. تنوّع هذه الأحداث يجعلني أراها مهرجاناً كبيراً لا ينتهي..

منذ أشهر أصيبت عمتي بشللٍ في ساقيها، وقبلها أصبت بصدماتٍ كثيرة...

كلما واجهتني مصيبةٌ رأيت الدنيا مهرجاناً.. وكلما أسعدني شيءٌ تذكرت المهرجان أيضاً...

المهرجان شيءٌ به سلسلة أشياء، أحياناً يكون مهلهلاً كثير الزركشة وبه أشياء سلبيةٌ كثيرة، هناك الزحام الشديد أحياناً وهناك الحوادث.. وهناك طفلٌ تائهٌ يبكي يريد أمه.. آه لكم تهت وعانيت الزحام. ولكن هناك أيضاً الأشياء الجميلة، الألعاب النارية ذات

الألوان البراقة التي تعلو ثم تتساقط في أشكالٍ بديعة، والأوراق الملونة والآيس كريم أحياناً...

لقد مر بي كثير من هذه الأجزاء.. أكثرها كان في سني الطفولة والحداثة...

والآن أقضي لحظةً من أجمل لحظات المهرجان.. لحظةً بها كثيرٌ من البهجة والسرور...

وابتسمت هند واستنار وجهها حباً وسروراً..

إن عينيّ الآن على أجمل الألعاب النارية وهي تتفتح بألوانها البديعة زخرفةً رائعة الجمال... إنها أجمل ما في هذا المهرجان.

ولكن تلك اللحظة انتهت بالسرعة التي تختفي فيها الألوان النارية البديعة في الجو، ومرت عليهما نسمة رطبة ثقيلة...

في مكتبه المزين بزهرة البراري الأليفة والباندا والغابة المطيرة يجلس ماجد غاضباً، حزيناً على أشياءٍ كثيرةٍ ذهبت مع فيصل. كان المدير الجديد مطواعاً لرؤسائه، ومطواعاً لبعض مرؤوسيه من أمثال شاكر. ولأنه لم يكن يثق بنفسه كمديرٍ فقد اتخذ له بطانةً تعينه على كلِّ شيءٍ وتوجهه الوجهة التي تريدها. ولم تكد تمضي أول بضعة أشهرٍ حتى ظهرت سيئاتُ القرار وبدأت تنتشر شائعات بأن شاهين سيطير قريباً ويحط مكانه إما فيصل أو شخصٌ آخر لا يعرفه أحد. واليوم يجلس ماجد حزيناً إذ ثبت له أن الأخبار التي سمعها ليست صحيحة. ولكن الإدارة كلها تتهامس ويدخل عليه سرور مشرق الوجه، لقد تأكّد خبر عودة فيصل، سيعود غداً وينقل شاهين إلى مكان آخر.

الدنيا يفتر ثغرها عن ابتسامةٍ رغم كل شيء. واليوم يدخل فيصل ويستقبله الجميع مبتسمين وعلى رأسهم حمد وشاكر. حمد وشاكر؟

هذا لم يكن رأيهما في الموضوع، وإلى الآن. لقد فاجأهما وهما يتأففان بتلقيهما نبأ الاجتماع الذي دعا إليه المدير الجديد الذي استقبلاه مع الجميع قبلها بساعةٍ بأكبر الابتسامات، وها هما في الاجتماع يعتذر المدير إلى الموظفين عن اضطراره لعقد هذا الاجتماع الطارئ فيؤكدان له أن هذا هو ما يجب أن يكون، وأنهم سعداء بهذا الاجتماع، هلا سكتا على الأقل؟

وسكتا، وتحدث فيصل:

لم أشأ أن أقبل العودة إلى هذا المكان بعد أن أُبعدتُ عنه، فمن سمح بإبعادي هو من أذن بإعادتي الآن ولا أستطيع أن أتناسى ما فعل، وقد تتساءلون:لماذا إذن قبلت العودة؟

قبلت العودة لأري بعضكم أنه في النهاية لا يبقى إلا الصحيح وأن الحق لابد منتصر، وثمة شيء خاص بي... لم أنس الوجوه الحزينة التي ودعتني وعليها إحباط الشعور بالهزيمة، ولم أرد أن أبقى مهزوماً أنا وهذه الوجوه إلى الأبد وقد واتتني فرصة الانتصار..

لطالما لعبت مبارياتٍ كثيرةٍ مع الفوضى في هذا المكان..

أحياناً كنت أنتصر، وأحياناً كانت تنتصر عليّ...

والآن قررت أن أعتزل اللعب، وأردت أن ألعب مباراة الختام، لهذا عدت. وبهذا تنتهي مباراتي الأخيرة. إن استقالتي على مكتب رئيسي في العمل الآن وعليها اسمٌ اقترحته ليحل محلّي هذا.

ولكن الوجوه الحزينة ووجوهٌ أخرى متفهمةٌ وذات سلطة أغلقت عليه الطريق إلى التراجع فعاد إلى منصبه. واحتفلت هند بأخيها، وشعرت أنها تحتفل بأشياء كثيرة، وثرثرت كثيراً

مع سارة خلال الأسبوع الأول لعودتها –والذي تزامن مع عودة أخيها إلى عمله– عن قصتها مع ذلك الإنسان النحيف ذي النظرة الرومانسية التي يشوبها الحزن فيزيدها رومانسية. وأخذت تنتظر ما سيحدث، ولكن لم يحدث شيء..

هل كان ذلك حلماً استيقظت منه؟ لقد مرت أيام وأيام ثم أسابيع وأسابيع وهاهي تكاد أشهر الإجازة الصيفية تكتمل ولم يخابرها لا ماجد ولا أخته. أصابعها تأبى دائما أن تجرب الرقم الذي كانت منيرة قد أعطتها إياه. كانت ترى أن ذلك الرجل وأخته هما اللذان يتعين عليهما الاتصال لا هي. وعندما لم تطق على الأمر صبراً تحدثت به مع سارة.

ليش، ليش تراجع؟ ليش يبيّن متردد وخايف؟

يمكن فعلاً عنده مشكلة مثل ما لمّح..

بس المفروض ما تكون عنده أي مشكلة، ظروفه كلها عدله.

وتقترب سارة بنظرةٍ جادةٍ في عينيها:

قولي لي، انتي عطيتيه وجه؟

اش قصدك؟ ما ادري... يمكن... ليش لا؟

الرجاجيل ما ينعطون وجه. معظمهم أول ما يحسون ان البنية صارت في يدهم يكرهونها ويزهدون فيها.

لا، لا، ما أظن انه كرهني أو زهد فيني... مستحيل!

ليش إذن ما حاول يتصل ولا حتى حاول يسلم عليك وانتي في الإمارات؟

ما ادري.

شوفي هند، اوعديني بشي واحد.. إذا تقدم لك واحد مناسب غيره تقبلينه، لا تقعدين تنتظرينه.

ليش تقولين هالكلام؟

اخاف عليك من مصير شفته عند ناس غيرك.

صمتت هند وهي تنظر إلى صديقتها بحيرةٍ واستغرابٍ ثم حاولت أن تطرد كل تلك الأفكار من ذهنها. لم تكن قد فكرت في مسألة تقدّم شخصٍ آخر قبل تلك اللحظة. ولكنها بدأت تُسائل نفسها عما سيكون موقفها لو حدث ذلك، فوجدت أنها غير متأكدةٍ من شيء. ولكن سارة ظلّت خلفها حتى جعلتها تعد أنها ستفكر بجديةٍ في الموضوع إذا ما خطبها شخصٌ ما، وستقبله بلا تردد إذا وجدته مناسباً. استطاعت هند أن تعد لأنها بدأت تشعر بجرحٍ تجاهل ماجد لها، وشعرت أنها بهذا الوعد ردت الطعنة.

١٨

تسكنني مشكلتي

ها أنا في البيت مرةً أخرى تسكنني مشكلتي... الأموات لا يعودون للحياة. منذ أمدٍ بعيدٍ وأنا أجد مشقّةً في عيشها لأنني لا أستمتع بها مطلقاً. أحياها كالواجب ولا أشعر بوزني. حتى الناس لا يتعاملون معي بجديةٍ دائماً ولا ألومهم، فأنا نفسي أراني غير ذي وزن. أفعل كل ما يتوجّب علي فعله وبكل إخلاصٍ ولكني أفتقر إلى الحياة...

والأموات لا يعودون ثانية إلى الحياة.. لطالما حاولت إقناع نفسي بذلك لأستريح ولكني دائماً أردده بلا اقتناع كالببغاء. أظن أنني ينبغي علي أن أقتنع الآن بأن من مات لا يعود إلى الحياة...

هل أنا حقاً بحاجة إلى الحياة التي غادرتني؟ لم أعد بحاجةٍ إلى عودة الأموات. قلبي يريد أن يعيش وقد وجد من يحييه ولكن الخوف يجرّني إلى الخلف...

لقد متُّ منذ مدة طويلة حتى اقتنعت بهامش الحياة ورضيت بكل شيء.. محاولاتي لإحياء نفسي لم تكن تنجح في السابق لأن ثغراتِ هذه النفس كثيرة. ولكن الأمر مختلفٌ الآن، هذه الثغرات من الممكن سدها...

والقضية الآن هي: هل سيشفي سدّ الثغراتِ هذه النفس التي رضيَت من الحياةِ بالفتات كل تلك المدة؟ هل سأصبح رجلاً مكتملاً؟ هل سأصلح لتلك الجميلة؟ أرفض بشدةٍ أن أقدم لها أقلَّ مما تستحقه ولو كان ذلك نفسي. إنني أنظر إلى المرآة فأرى هذا الشخص المهزوز الذي يسمع كثيراً من الناس يقولون إنه معقدٌ لأنهم لا يفهمون كثيراً مما يقول، ويتجاهلهم هو لأنه لا يهتم بما يقولون، فأرى أنه أقلُّ منها كثيراً. ولكني أعلم ما بداخله. أعلم أن قلبه مفعمٌ بحب تلك الجميلة،

وأنه يعلم قدْرها ويرى بها ما لم ولن يراه أحدٌ غيره. وأعلم أنه لن يحبها أحدٌ كما يحبها ولن يكرمها أحدٌ كما سيفعل لو أنه حظيَ بها، فأعذره في حبه، وأميل إلى إنصافه..

ترى هل سأستطيع يوماً أن أقدّم له فرصةً بهذا الحجم؟ هل أستطيع المغامرة بها؟ إنها مغامرةٌ حقاً. كيف يرتبط إنسانٌ غير متأكدٍ أنه حيّ بإنسانٍ مليء بالحياة؟ إنها حقاً مليئةٌ بالحياة من قمّة رأسها حتى أخمص قدميها اللتين تعجان بالحياة. لقد رأيتهما عندما أخذت تمشي حافيةً على الشاطئ. كانت أظافر أصابع قدميها مطليةً بلونٍ بهيج. حتى أصغر تلك الأظافر كان مطلياً وجميلاً ويصرخ بالحياة. وعندما أخرَج الهواءِ خصلاتٍ من شعرها من تحت الخمار كانت تلمع بشدةٍ وكانت تعج بالحياة...

صوتها أيضاً تصرخ فيه الحياة. إنه يأتي موسيقياً حنوناً وبه حدّةٌ حلوةٌ تشبه طعم الخوخ الطازج في أوج نضجه. أشعر أنه لا يبدأ من فمها بل تتشكل كلماته في القلب ثم ينساب عبر أوتارٍ رقيقةٍ بديعة التكوين. وعندما أسمعه أشعر أنه يوقظني من سباتي ويغريني بالحياة بكل ما فيها من مباهج...

رباه هل أستحق كل تلك الحياة؟

كان سعد يعزف على الأورغ أنغاماً مرحةً إلا أنها كانت تنبش أشياء حزينةً في نفس هند لذا فقد اتجهت إليه وفتحت باب غرفته فجأة. وإذ التفت إليها بوجهه الذي لم يبتعد كثيراً عن الطفولة وفي عينيه نظرةٌ متسائلةٌ عن سبب قدومها العاصف، تراجعت وقالت بهدوء:

جيت آسأل عن هذي الموسيقى..

ابتسم سعد:

آنا آألف معزوفة، قلت لك عنها من زمان.. حلوة؟

حلوة.. بدت شخصيتها تطلع...

وأغلقت بابه في هدوءٍ وأوت إلى غرفتها مستسلمةً للأنغام البعيدة التي تتناغم مع أشياء في داخلها لا تحب نكشها.

ماجد يتأمل الصورة الكبيرة التي نقلها مع باقي الصور من جدار غرفته في بيت أبيه إلى جدار غرفته في بيت عمته.. يمرّ بأصابعه على كرة القدم في الصورة ثم يرفع يده فجأة ويهم بالابتعاد ولكنه يتوقف ويطرق برأسه طويلاً..

يشيح بوجهه وعينيه اللامعتين ثم ما تلبث دمعتان أن تنحدرا على خديه.. يمسحهما سريعاً ويرفع بصره إلى السقف.. يلتفت إلى جميع الاتجاهات.. يريد الفرار، ولكن أين المفر؟

أنّت في رأسه صفارات سيارة الإسعاف. كيف يحدث كل شيءٍ في لحظة؟ ما أقبح ذلك الصوت! يتذكر السيارة من الداخل، يتذكر الأجهزة والأشياء ويتذكر اهتزازات

الجسد بداخلها. يتذكر الأنابيب الدقيقة وجهاز التنفس. حينها كان يكاد يختنق، كان يحتضر. كان يريد أن يمسك الممرض من تلابيبه وأن يقود السيارة بنفسه كي تطير به إلى المستشفى ولكنه كان عاجزاً عن فعل أيِّ شيء، كيف لم تخرج روحه في تلك اللحظات؟

ولكن من قال إنها لم تخرج، لقد خرجت وظل الجسد حياً بلا روح، ولا يعلم كيف حدث كل ذلك..

لماذا لم تُنقذ تلك الروح؟ لماذا لم أصعد في ذلك اليوم المشؤوم كي تكون القاضية؟ لماذا أخذت أستعد لذلك الامتحان اللعين لأواجه هذا المصير؟

كان الجميع يصرخون والسيارة مقلوبةٌ بها روحه التي رحلت.

وجهه يلمع في المرآةِ وكيانه يصرخ في وجهه: لماذا مت؟ ألم تستطع المقاومة؟ لماذا تركتني هكذا؟ لماذا لم تهيئني للعيش في هذه الدنيا بلا روح؟ لماذا تركتني أتكلّف الحياة وأعجز عن عيشها كما يجب؟

أطلق زفرةً كبيرةً وهو يسمع زامور سيارة الإسعاف من داخله ويستشعر رعبَ ذلك اليوم. وانتهت خطواته المترنحة إلى مكتبه حيث أكبَّ عليه. وما هي إلا لحظاتٍ حتى أخذ جسده يهتزُّ بينما أخذ صوت النشيج يرتفع شيئاً فشيئاً وكأنه سحابةٌ اختزنت الماء زمناً طويلاً حتى عجزت عن حمله فأخرجته سيولاً برعدٍ وبرق..

وظلت السحابة تمطر حتى غيض ماؤها. ثم رفع رأسه فكانت أوراقه شديدة البلل، وفي وجهه الرطب نظرةٌ تريد أن تقاوم وتتحدى رغم كل شيء.

١٩

اصطادت مريم ابنتها من ذراعها قبل أن تبدأ الصعود إلى الطابق الثاني وقالت لها باهتمام:

هند، اليوم جاوونا خِطّاب.

خطّاب؟ حق من؟

من له بيجون؟ لي وإلا حق ابوك وإلا حق سعد؟ وفيصل متزوج من زمان.

ابتسمت الابنة إذ أدركت سخف السؤال ثم بدت نظرةٌ متساءِلةٌ في عينيها:

بس من اللي جاي يخطب؟

أطلقت الأم ذراع الابنة واستقرت على رأسها هي ظناً منها أن الضغط على الرأس يعين على التذكّر ثم هزّت رأسها في حيرة.

نسيت اَلحين.. لكن همه ناس طيْبين وايد.

وجه هند حائرٌ، ولكنه لا يدوم كذلك طويلاً بل ترفع كتفيها بغير اكتراثٍ وتنطلق إلى غرفتها، ولكن عقلها أخذ يفكّر بلا هوادة ثم قبل أن تصل إلى الغرفة طرأت على بالها فكرةٌ فتركت طريق الدّرَج واتجهت بخطىً عصبيةٍ إلى حيث التلفون، وبأصابع تكاد

ترتجف غضباً تضغط على أزرارٍ معينةٍ ثم تقف وتنتظر الإجابة وهي تهزّ إحدى ساقيها بعصبيةٍ، وأخيراً تتكلم:

سارة قولي لي بصراحة: انتي تعرفين شَي عن الخطّاب اللي جاو بيتنا اليوم؟

خطّاب؟؟ مبروك، مبروك!

سارة، لا تستهبلين، من كم يوم ما خليتيني أوعدك إني إذا تقدم لي شخص مناسب أقبله، ليش تخشّين علي؟

هند، آنا ما ادري شنهو المسألة، آنا نصحتك نصيحة عامة.

يعني ما تعرفين شي عن الموضوع؟

وراسك ما اعرف أي شي.

في غرفتها أبدلت هند ملابسها ثم استكملت أعمال ما قبل الغداء

وعادت تُسائل نفسها وهي تنزل على الدرج:

من؟

أقبله؟

أأستطيع؟

كيف أستطيع؟

وأيضاً لماذا لا أستطيع؟

ألم تجعلني سارة أعد بأن أقبله؟

ولكن هل أنا مضطرة إلى برّ هذا الوعد؟

لا طبعاً، هذه حياتي أنا، سأفسح الطريق لذلك الماجد.

على المائدة جلست بجوار أمها وأخذت تلتفت إليها بين اللقمة واللقمة علّها تقول شيئاً.

وقالت شيئاً. فتحت الموضوع ثانيةً أمام راشد وسعد وأصبحت هند فجأة محطّ الأنظار والتعليقات وشعرت بالضعف الجميل، استغربت الاستسلام للاهتمام مع أن القلق يساورها ويجعلها تُصرّ على رفضها لهذا الموضوع.

زين خلنا نشوفه على الأقل.. كل مرّة بترفضين بدون سبب؟

يمُه ما يصير، ما يصير! آنا أصلاً ما ابي اتزوج اَلحين.

يا حبيبتي الناس ما قالوا الحين، قالوا في الصيف. توها فاتحة المدرسة.

زين بعدين نتكلم في المسألة... ما قالوا انهم بيتصلون بعد كم يوم؟

قالوا.

ثم صمتت الأم واستنشقت قدَراً هائلاً من الأكسجين كنايةَ عن ضجرها وعدم قبولها لما تقوله ابنتها المُتعِبة، أما الوالد فقد أخذ يأكل بشهيةٍ ولا يكاد يهتم بالموضوع، تزويج البنات همُّ الأمهات وليس الآباء، كما أنه كابنته من النوع الذي يحتاج وقتاً طويلاً لاستيعاب الشيء ليتسنى له البتّ فيه بعد ذلك، لهذا لم يزد عندما لاحظ ضيق ابنته على أن التفت إلى زوجته قائلاً:

خلاص يا مريم، لا تضيْقين عليها.

وبينما أخذت الأم تُبرّئ نفسها أخذ يكمل أكله بسلامٍ وكأنه لم يسمع شيئاً ثم نهض وهو يحمد الله على نعمته الفضيلة وسار باتجاه الحمّام ومن ثم الفراش تاركاً الأم والابنة وحدهما على المائدة.

إي، إي تذكرت! اسمه مايد... مايد بن...

وقبل أن تستفيق هند من المفاجأة التي اضطرب لها نبضها واصلت الأم:

جاتني أمه واخته وتقول اخته انهم يعرفونك، وانتي تعرفينهم.

هند يبدو عليها الذهول إذ هي مأخوذة بذلك الخبر المبهر..

هند؟ اش فيك يمه، تغيرت ألوانك؟

ما فيني شي يمه..

تذكرتيهم؟

إي، ليش ما قلتي من أول إني أعرفهم؟

نسيت.. يعني انتي الحين موافقة؟

وتدلّى رأس هند باستسلام:

موافقة.

ثم يبدو أن الأم استنكرت شيئاً فالتفتت إلى ابنتها ثانيةً:

تعرفين الصْبَيّْ؟

شنهو صبي يمة، موظف اشكبره تسمينه صبي؟

تعرفينه لو لا؟

تتلعثم هند قليلاً ولا تحر جواباً فتستنتج الأم الحقيقة:

انتوا يا بنات هالوقت شياطين، تسوون كل شي.

اش سوينا يمه، آنا ما سويت شي، بس شفته ويا اخته وعيالها في الإمارات مرة مرتين..ثلاث.. يمكن أربع... أو خمس...

وحاكيتيه؟

يعني... سلام.

وتهز الأم رأسها بغير اقتناع:

إلا تكلمتي معاه، وسولفتوا سوالف طويلة، صح والا مب صح؟

وتنظر هند إلى أمها نظرة المذنب الذي يأمن جانب الطرف الآخر:

صح.

أشاحت الأم بوجهها واتجهت إلى غرفتها:

انتوا ينخاف منكم يا بنات هالزمن..

ثم أخذت تهز رأسها وتهمهم بعباراتٍ مستهجِنةٍ تشعر أنه يتعيّن عليها أن تقولها، ولكن هند كانت قد لمحت روح ابتسامةٍ تلوح على وجه أمها قبل أن توليها ظهرها، لذا فقد خطَت خلفها وأمسكت بذراعها وفي مواجهتها قالت باسمةً بعبث:

انتي مب مغتاظة بس تمثلين صح؟

لا، آنا ما امثل.

واقترب وجه الابنة من وجه الأم حتى أصبحت تطلُّ في عينيها:

متأكدة يمة انك زعلانة؟

ضحكت الأم إذ عجزت تماماً عن مواصلة تأدية دور الأم الصارمة ثم دفعت بابنتها عنها وأعادت رسم التعبير العابس وقالت وهي تبتعد:

آنا زعلانة بس ما هاوشت لأني تعبانة الحين، اليوم آنا طابخة وحاطة ثياب ابوك في الغسالة... ما فيني شَدّة أهاوش.

ضحكت هند ضحكة مرحة بينما مضت الأم تهمهم بكلمات مُستهجِنةٍ ثم استدارت وقالت:

بس اَلحين ما في فايدة خلاص، انتي قلتي حق ابوك انك ما تبين.

يمة، تصرفي... أرجوك.

آنا ما يخصني، انتي قولي له.

وظهرت الحيرة على وجه الابنة فعادت الضحكةُ المخبّأةُ إلى وجه الأم التي استدارت بها سريعاً مواصِلةً طريقها، ولكن هند لمحتها أيضاً فركضت إلى أمها وقبلت خدّها ثم سارت بخطىً مرحةٍ إلى غرفتها. وهناك شعرت برغبةٍ هائلةٍ في الجري إلى التلفون وإزعاج سارة بذلك الخبر، ولكنها لم تُرِد أن تفوتها ملامحُها المستغربة لذلك فقد أرجأت الأمر إلى الغد.

في الغد كان منظر سارة بعينيها الحائرتين بين الدهشة والفرحة وفمها المفتوح لا يقدّر بثمنٍ لدى هند التي أخذت تضحك وهي تتأمل وجه صديقتها المستغرب، حتى تحولت ملامح سارة من الاستغراب إلى الفضول الشديد وهي تتوسّل إليها أن تكفّ عن الضحك وتخبرها بالتفاصيل.

عندما خرج ماجد وأبوه وراشد وابنه من المحكمة وفي جيب كل منهما نسخةٌ من عقد الزواج اقترب ماجد بخجلٍ من حميه وسأله إن كان في الإمكان زيارة العروس لمزيدٍ من التعارف قبل الزفاف، وعاد إلى مكانه مبتسماً وقد ازدادت خطاه خفةً بعد إجابة الوالد. لقد كان متأكداً من موافقته لأنه مذ قابله لخطبة ابنته وهو يعامله بمودةٍ شديدة.

لا أعرف كيف أخبرك بذلك، ولا أعلم إن كنت ستصدقينني فيما سأقوله...

وبالطبع ستصدقه، كيف لا وقد عاد.

كنت أخشى عليك من نفسي ومن قدَري. كان يتعين علي أن أحارب ظروفي لأضمن أنني سأسعدك أو الأقل لن أتعسك..

أنت تتعسني؟؟؟؟!

إنني أعيش مأساةً مذ كنت في الخامسة عشرة من عمري، منذ ذلك الآن وأنا أشعر أنني أعيش بنصفي فقط، نصف حياة، نصف إنسان، أو إنسانٌ بلا روح.. جذوة الروح انطفأت...

لا يغرنّك نضالي من أجل البيئة، إنه واجب أؤديه، كما آكل وأشرب وأتعامل مع الآخرين، أفعل كل ذلك بنصف إحساسٍ وكأن دماغي تحت تأثير مخدِّرٍ قويٍّ يجعله لا يشعر شعوراً كاملاً بالأشياء..

كنت أحد توأمين، كنا متشابهين إلى أقصى حدّ، وكان الجميع حتى أمي وأبي يعجزون أحياناً عن التمييز بيننا..

أحمد...

أحمد هذا كنت أجبن عن ذكر اسمه. ولم أنجح أبداً في وضعه جانباً في ذاكرتي، فهو دائماً في الصدارة. كنت أتجنّب ذكره مذ فارقته وإن كانت صورُه تملأ غرفتي، كان مرآه يعذّبني ولكني أنقل صوره معي أينما ذهبت، لأن غيابه أيضاً يعذبني. وكنت أشعر بانكسارٍ وانهزام لأن الموت اغتصبه مني، اقتلعه من بيننا وهو في الخامسة عشرة من عمره وهو يقود سيارة شقيق صديقنا على كثبان مسيعيد الرملية. كنت أستذكر دروسي

بعيداً عن الكثبان لأن اليوم التالي كان بداية امتحانات نصف العام، ولكني رافقت أخي تحت إلحاحه هو وبقية الأصدقاء، وجلست بعيداً أدرس وهم يتسلقون الكثبان بالسيارة.. إلى أن هوت أمام عيني من أعلى الكثيب وحولها عاصفة من الرمال...

لقد كان منظراً مهولاً، كيف لي أن أصمد أمام منظر سيارةٍ هائلةٍ تهوي بأخي الذي اعتدت ألا أفعل شيئاً بمعزلٍ عنه حتى أصبحت أستغرب كيف يعيش الآخرون فرادى.. كنت فعلاً أستغرب كيف يعيش الآخرون فرادى... انطلقت إلى السيارة مرتاعاً لأرى أخي مغطى بدمائه وشبه ميّت.. في سيارة الإسعاف قضيت أشد أوقاتي قلقاً وخوفاً وأنا أرقب صدر أخي لأطمئن إلى استمرار تنفسه، وكدت أجن. إذا أبطأ السائق صرخت فيه كي يسرع، وإذا أسرع ورأيت جسد أخي الممزق يتأرجح صرخت فيه كي يبطئ، حتى وصلنا إلى المستشفى وأنزل أحمد.. ميتاً..

كنا نعيش أنا وهو في منزل عمتي. كانت قد أخذتني منذ ولادتي لأن أمي كان لديها أختين أكبر منا قليلاً وكانت عاجزةً عن رعاية طفلين معاً إلى جانب طفلتيها الصغيرتين، ولم يكن لعمتي أطفال.

ولكننا عندما بلغنا الثانية من العمر أصبح فصلنا مستحيلاً، وأصبح انفصالي عن عمتي مستحيلاً كذلك فأخذته عمتي هو أيضا. وكان ذلك سهلاً على والدتي لأنها كانت قد أنجبت لتوها أخي إبراهيم. وبقينا هناك حتى توفي أحمد في الحادث..

عندئذٍ عجزت عن أن أعيش في المنزل نفسه المكتظ بذكرياتي معه، فتركت بيت عمتي إلى بيت أبي. وحتى عندما تركت عمتي ذلك البيت لم أستطع العودة للعيش معها لأن البقاء معها يعني أن هناك نقصاً في العدد، ولم أعد إليها إلا عندما شُلت ساقاها...

لا أعرف كيف تمكنت من ذلك ولكني لم أستطع أن أخذلها وهي في تلك الحالة، بهذه الخطوة ظننت أنني تجاوزت الأزمة، ولكني مع ذلك ظللت أشعر أني مخلوقٌ ناقص، ولم أتخيل أنني سأكتمل إلا عندما رأيتك ثانية...

هل فهمت الآن لماذا قلت لك يوماً إنني أشعر بأني عثرت على أخي عندما رأيتك؟ أحسست أن التشبيه صدمك ولكني قصدت أنني شعرت أني وجدت ضالتي، وجدت من يعيد إليّ اهتمامي وإحساسي بالحياة ومن سيشاركني كل شيء...

لقد اكتسب الأخ التوأم لديّ بعد تلك الفاجعة معنىً مبالغاً فيه لأني فقدته فجأةً وقبل أن تكتمل شخصيتي وأستقل بحياتي عنه.. قبل أن أفصل ذاتي عن ذاته تماماً..

لذلك ظللت أشعر أني نصف كيان، بلا قيمة.. كحذاءٍ ضاعت إحدى فردتيه..

إنني أعيش حياةً طبيعيةً أمام الناس وأمام نفسي لشعوري أن هذا هو ما يجب أن يكون، أعيشها كما تطفو قطعة خشبٍ على سطح الماء.. وهل لقطعة الخشب إلا أن تطفو؟ يجب أن أذهب إلى المدرسة والجامعة، وأن أعمل وأمارس ما تعلمته وما أجده مقنعاً لأن هذا هو ما يجب أن أفعله في حياتي دون أن أتذوقها، كأني أتحسسها من خلف غشاء، ولا يعلم أحدٌ أنني أعيش حياتي وأنا أشعر بأنني إنسان نصفه في القبر..

فقط عندما رأيتك أحسست بسخفي وعجزي وتعلّقي الذي لا معنى له بأخٍ مات منذ سنين..

فقط عندما رأيتك انتبهت إلى أنني نسيت أن أتجاوز الخامسة عشرة..

فقط عندما رأيتك قررت أن أجتاز المحنة وأشق نفسي عن نفسه، أستخرجها من قبره الذي استقرت فيه عشر سنين..

فقط عندما رأيتك بدأت أشعر أنني كيانٌ مستقل..
عندما ابتعدت عنك فعلت ذلك لأنني كنت أخاف أن أرتبط بك فيقف أخي بيننا يوشحنا بكفنه. ما ذنبك وأنت المليئة بالحياة لترتبطي برجل ميّتٍ روحه مدفونةٌ في قبر أخيه؟

لم أصارع نفسي قط كما صارعتها لأنتصر لحبك، لزهرة البراري الأليفة التي فقدتها في طفولتي فعادت إليّ ببهائها وبراءتها وشذاها الرقيق في شكلٍ آخر أكثر سحراً..
ولأنتصر لبراءتك التي جعلتك تُقْدِمين بلا تردد.. لم أرد لك أن تَشْقَيْ فقط لأنك اندفعت إليَّ ببراءةٍ وراهنت على حبي بكل ما تملكين من مشاعر. لم أرد لك أن تعاني، أستطيع أن أقضي بقية عمري متألماً ولكني لا أحب أن أؤلمك لحظة...
وكذلك لأنتصر لماجد الذي شعر مؤخّراً أنه يريد أن يعيش بعد أن كان يشعر أنه لا يحق له أن يبتهج ويفرح لأن توأمه تحت التراب...
عندما رأيتك أدركت أن للدنيا أبعاداً كثيرة لم أكن أعلم بوجودها من قبل، شعرت بأن لي قلباً يخفق، وبأن لي جسداً ما يزال حياً رغم كل شيء...
صارعت نفسي بضراوةٍ وجعلتك هدفاً يدفعني للتحدّي والتصميم على الانتصار.. ولهذا انتصرت. يلطف الله بمن يلجأ إليه ويمدّه بالقوة التي تجعله ينتصر، وما كنت لأجرؤ على خطبتك لو لم أنتصر..

كما يأتي فتى الأسطورة من الفجّ العميق فينتزع سيف القدر من الصخرة، تأتي الفتاة الأسطورية فتتربّع على تلك الكفّة التي أعيَت الدنيا.. تلك الكفة المتطاولة التي تأبى الهبوط..

الكفة تتزحزح، تبدأ في الهبوط من عليائها، لا تعود تُطاول السماء، لا تعود معلقةً في الجوّ البعيد، لا تعود عالية..

الكفة الأخرى المندفِنة في التراب من سنين تتحرك هث أيضاً، ها هي آخذةٌ في الارتفاع. رحلة الفقاعات تتضاءل وتنكمش حتى تختفي..

الميزان الآن مستقيمٌ به ماجد وهند كل منهما في كفةٍ فوق السطح.

٢٠

أخذت هند تحدق في اللاشيء، ووراء اللاشيء عينا ماجد الحزينتان أو اللتان كانتا حزينتين ولم تعودا كذلك. في تلك اللحظة كانتا حائرتين تنتظران حكمها. وهي ليست في عجلةٍ من أمرها خاصة أن الحكم تسرّب إلى عينيها وباقي ملامحها:

لقد غفرت لك، غفرت لك حتى قبل أن أسمع قصتك، وقبِلتك.. قبلتك مذ كنا في مستشفى الولادة.. منذ الأزل، وسأقبلك إلى الأبد مهما كان من أمرك...

وما أحوجني في هذه اللحظات إلى التسرية عنك...

فرحة عارمة تسري في جنبات ماجد، لفتة حانية كالنسمة الباردة في حرّ القيظ تمرّ بسلامٍ وتهدئ نفسه، قلبه، عروقه، أعصابه، عضلاته وأشياء كثيرة جداً جداً بالداخل يشعر بها تهدأ وتستكين وتسترخي وكأنه كان ممداً طوال تلك السنين فوق آلة تعذيب توتّر كيانه دون أن يشعر بها. يمشي بها ويمارس بها كل أعماله، وفي هذه اللحظات فقط تحرّر منها، فاستشعر كل جسده خدَر الاسترخاء اللّذيذ والراحة بعد طول التوتر. ما أثقل ما كان يحمل على عاتقه وهو لا يدرك... وفي لحظاتٍ أثيريةٍ استسلم لخدَر الرّاحة إذ تحرّر من كل جزيئات جسمه وتركها تسبح في كونٍ رحبٍ مُسْكِرٍ، وبقيَ هو

مستسلماً لِلَذّة التحرر الآسرة يعيشها من قمةِ رأسه حتى أخمص قدميه أمام أجمل منظرٍ أنجبته الطبيعة: وجه هند المبتسم.

إجازةٌ قصيرةٌ من كل الهموم تَجدد نشاط ماجد بعدها، وها هو يتفحّص أنواعاً من أقمشة الستائر، طقماً من كراسي حجرة الاستقبال، غرفة نوم، مناشف جديدة... أشياء كثيرة يبحث عنها بحماس، أحيانا برفقة هند ووالدتها وأحيانا برفقة هند ووالدته وأخرى برفقة هند وأخيها وأخرى برفقة هند وأخته منيرة..

البيت والناس والأجهزة والأدوات والمواعيد وكل الأشياء عناصر تدور حول محورٍ واحد، والمحور هو هند، الفتاة التي كفّت عن الجري في الغابات خلف الغزلان وأصبحت واقعاً جميلاً أكثر عذوبةً من الحلم..

يحجز الأشياء الكبيرة ويتركها في محلاتها ويكدّس الصغيرة في مخزن بيت عمته أو بيت هند. كيف تحركت الأمور إلى هذه المرحلة؟ لا أحد يعلم. كيف انتهت المشاكل كلها ووصلا إلى هذه النقطة؟ لا أحد يعلم. أليست الدنيا حقاً مهرجاناً ساحراً من الأيام والليالي؟ أيضاً لا أحد يعلم!

وها هي خيوط الأضواء الملونة الخلّابة تسطع في الجوِّ وتبلغ مداها فتضيء الكون وتصنع منه عالماً ساحراً يخلب الألباب ويثير البهجة..

لكم أحب راشد صهره، لقد عشقه وأصبح يفرح بمرآه ويدعوه إلى بيته المرة تلو المرة، فيجلس هذا وسط الأسرة الصغيرة مضفياً جواً جديداً يحبه راشد وسعد، وتسعد به مريم وابنتها وتستعدان له من بداية اليوم؛ هند بكتبها الخاصة بالطهو تستخرج منها وصفات الأطباق الحلوة، والأم بوصفاتها الشعبية الشهيرة وعودِها ومباخرها. ثم ينفضّ الجمع

ويبقى ماجد مسامرًا لحميه حتى الحادية عشرة ليلاً. وتبادل الصديقان المنافع، ماجد يقدّم اهتمامه بكل قصص الأب وأحلامه للمستقبل، وهذا يقدم حكاياته الكثيرة عن الأيام الجميلة التي انقضت، عن تجربته التي لم تدم أكثر من أشهرٍ قليلةٍ في نهايات عهد الغوص، عن تجارته ورحلته اليتيمة إلى كراتشي.

في حديقة المنزل هبّت أول أنسام الشتاء، وابتسمت هند وهي تحاول
تدفئة ذراعيها بكفيها. في مثل هذه الأيام رأت ماجد في رحلة الطالبات وسمعت صوته الذي تحبّه كثيراً، وابتسمت ثانيةً لأنها ظنت أنه في الثامنة عشرة وأنه من تسبب في الحادثة التي كان بريئاً منها... ومن الآن لن تفكر في المواسم إلا وفيها ماجد فتى الأحلام الهزيل الذي اختفت النظرة الحزينة من عينيه وبدأت تظهر شخصيته المرحة المحبّبة. وشعرت بشوقٍ لبدء ذلك الزمن الذي ستمشيه مع ماجد خطوةً خطوة.

* * *

لم يبق إلا صف اللبنات الأخير، أصبحت الطفلة سريعة، القرب من الانتهاء يزيد حماسها كثيراً ومن ثَمَّ سرعتها. ها هو بيتها الصغير يوشك أن يكتمل، لم يبق إلا السقف..

السقف رمادي اللون ويجب أن يوضع قطعةً قطعةً وبحذر، التجارب السابقة ونصيحة الأب تؤكّد أن وسط السقف ينبغي أن يُبنى منفصلاً عن البيت ثم يوضع على القطع الأخرى ويضغط عليه بحذرٍ كيلا ينهدم. ما أكثر الأشياء التي هُدمت عندما لم يبق على النهاية إلا خطوة واحدة...

والخطر قريب، ها هو صوته يعلن عن اقترابه، صوت خطواته الصغيرة المتلاحقة أصبحت قريبةً جداً.. يجب أن نأخذ حذرنا لكيلا نخسر كل شيء.. تهبّ الطفلة من مكانها وتركض نحو الباب، لم تبق إلا بضع خطواتٍ ويصل إليها الخطر. تغلق الباب في الوقت المناسب، تقفله. من مزايا أن يكون الإنسان كبيراً في السادسة من العمر أنه يصبح قادراً على قفل الباب وفتحه فيما بعد. الصغار مثل أخيها يستطيعون قفله فقط فيصبحون في خطر، أما هي فتعرف كيف تستخدم المفتاح، ستقفل الباب وهي مطمئنةٌ إلى أنها تستطيع فتحه، هذا هو الأمان الحق، لا يهدّدك الخطر الخارجي ولا يهددك الأمان المتكدس.

٢١

وتمر أيام مليئةٌ بالضحك والابتسام وجهد الاستعداد للحفل ومفارقاته. وفي إحدى السهرات تدخل هند لتقديم الشاي لأبيها وزوجها وهما يتحدثان في مستقرّ الأب.

أُبوي اسمه علي.. علي بن مبارك الحمدان...

علي بن مبارك راعي المجمعات التجارية ووكالة الـ... ؟

إي ما في غيره..

انتفض الأب من الداخل لدى اكتشافه لهذه المعلومة أما من الخارج فقد جمدت ملامحه فجأة، عيناه حائرتان في وجهٍ جامد ويداه متجمدتان في موضعهما حيث كان يلوح بهما...

علي بن مبارك؟ آنا ظنيت انك ولد علي بن حمدان.

لا، لا، الحمدان لقبنا مب اسم جدي، ما عندنا حد اسمه حمدان..

وجمدت العينان مرةً أخرى مع اليدين ثوانيَ ثم هبطت اليدان على الساقين وهبطت النظرات مع بقية الوجه إلى الأسفل، وبدا كله متساقطاً فاقد الاهتمام بما حوله... ولم يتسنّ لماجد أن يستنتج شيئاً لأن التجمد لم يدُم سوى لحظاتٍ وكذلك التساقط، ولكن الموقف كله تغير. شعر ماجد أن راشد بدا كمن ارتكب خطأً جسيماً وانتبه إليه متأخرا:

بو فيصل... في مشكلة؟

وتنهد الأب ووجّه بصره إلى اتجاهٍ آخر ثم التفت إليه بقوةٍ مصطنعةٍ كشأن من يريد أن يبتّ في أمرٍ ما دامت الفرصة سانحة، ثم عاد فابتلع القوة، وحاول التحامل على نفسه ومواصلة الكلام مع ماجد، ولكنه عاد بلا حماس. والحماس أو اختفاؤه هو ما أثار حفيظة ماجد. أين اختفى الحماس، أين ذهبت المودّة المتدفِّقة من العينين والوجه وحركات اليدين وكل شيء؟

وها هو يبدو متململاً في جلسته في إشارةٍ واضحةٍ معناها الرغبة في إنهاء الزيارة. وحانت من ماجد التفاتةٍ إلى هند التي لاحظت بدورها تململ أبيها وتحوّله المفاجئ، فجمدت هي لحظاتٍ وهي تحمل صينية الشاي ثم خرجت بها إذ أحسّت أن الجوّ غير ملائم. وما هي إلا دقائق حتى خرج ماجد متجهّماً. انطلقت نحوه.

مايد، اش صار؟ اقعد شوي باجيب الشاي..

شكراً ما في داعي للشاي...

وانطلق خارجاً فتبعته صامتة إلى الباب الخارجي ثم انطلقت إلى والدها تسائله:

يبه اش صار؟ لاحظت انك فجأة تغير مزاجك...

ونظر الأب إليها وبدا متردداً في الإجابة ثم حوّل بصره عنها ثم إليها وقال في لهجةٍ صارمة:

هذا الرجّال ما يصلح لك.

؟؟؟

ما يصلح لك!

ما يصلح لي؟ ألحين؟

إي، لحد الحين ما صار شيء... الزواج ما تمّ، والحين لازم يطلقك.

وانهارت هند وأتى صوتها منفعلاً:

يطلّقني ؟ هذي كلمة كبيرة وايد.

مب كبيرة ولا شي... انتو ألحين في حكم المخطوبين.

بس ليش؟ الرجّال ما غلط في شي.

شوفي يا هَنّود، آنا قلت لك كلمة واحدة، بتسمعينها سمعيها، ما بتسمعينها روحي معاه، لكن إذا رحتي لا انتي بنتي ولا آنا ابوك، وآنا بري منك.

قالها بغضب شديد وشعرت هند أن الأرض تدور تحت قدميها وأنها على وشك السقوط إذ لم تسمع هذه الكلمات القاسية من أبيها قط، ولم تره غاضبا منها وجاداً في طلبٍ قبل ذلك اليوم. استندت إلى ظهر الكرسي كي تحمي نفسها من السقوط ثم مشت بخطىً متهالكةٍ إلى غرفتها. وعلى سريرها جلست حائرةً تحاول جاهدةً أن تستوعب ما سمعت وأن تلتقط أيّ شيءٍ يدلّ على أيّ شيء.

انتشر الخبر في المنزل وجلس راشد حازماً أمام زوجته يتجنب تقديم أيّ تفسير. وظلّت هي حائرةً غاضبةً تهزّ رأسها احتجاجاً بين الفينة والفينة، وترمقه بنظراتٍ عاتبةٍ أحياناً ومتحفزةٍ أحياناً علّه يخاف منها ويخبرها بشيء. ولكنه ظلّ صارماً أمام كل شيءٍ. حتى نظرات الانكسار التي ظهرت على وجهها بعد اليأس لم تحرك شفقته. وظل يعبث بحبات المسباح بخشونةٍ ثم رفع السماعة من أذنه. عندئذٍ تتنهد الأم بيأسٍ شديدٍ وتقوم من مكانها متذمرة.

عندما فتحت الأم باب غرفة هند وجدتها مستلقيةً على سريرها وقد غطّت وجهها بالوسادة... مع انفتاح الباب كشفت هند عينيها ناظرةً تلقاءه، وما إن رأت أمها حتى سالت دمعتان من عينيها فأغلقت الأم الباب خلفها بهدوءٍ وجلست على السرير وأخذت تنظر إلى ابنتها الحزينة، ولم تجد ما تقوله إلى أن مسحت هند عينيها ونهضت جالسةً قبالة والدتها وسألتها بتوسل:

يمه، أرجوك عَلميني إذا كنتي تعرفين شي، آنا مب فاهمة أي شيء...

ليش أُبوي فجأة غيّر رأيه في مايد؟

آنا ما اعرف شي يا حبيبتي، قعدت معاه ساعة كاملة، ما في فايدة، ما يبي ينطق...

سمعتي اللي قاله لي؟ قال لي إذا ما سمعتي كلامي روحي معاه وآنا بري منك، وانتي مُب بنتي...

شهقت الأم مستنكرةً فتدفق صوت الابنة الباكي:

تصوري يمّه، عمري ما تخيّلت ان ابوي بيكلمني بهذي الطريقة..

هزت الأم رأسها وظلت صامتة، وأخذت هند تفكر قليلاً.

يمة انتي اش رايك؟ يعني...

وبدت نظرةٌ شديدة الاستهجان ومرتاعةٌ على وجه الأم:

رايي في شنو؟

وتنهدت الابنة وصمتت.. طبعاً... هي نفسها مرتاعةٌ من الفكرة، لن تجتثّ نفسها من الجذور ولو ضحّت بحياتها وسعادتها.

ها هي الخيوط الضوئية الملونة تختفي بعد أن بلغت مداها، ها هي تختفي فجأةً من الجو الاحتفاليّ فتحوّله إلى ليلةٍ مظلمةٍ بها ما بها من وحشة..

موكبٌ من الأيام اللزجة يمر في أفق ماجد، كيف مرت تلك الأيام السعيدة بهذه السرعة، وما تفسير الأمر، لماذا غيّر راشد رأيه فجأة؟ ولا سبيل إلى معرفة الحقيقة. أمه لا تعرف شيئاً، وكذلك أختاه لم تسمعا عن أيّ خلافٍ بين أبيها أو جدها وبين راشد. وحتى الأب والعمة لم يسمعا عن مثل هذا الخلاف. أما راشد فقد اعتصم بالصمت وأخذ يطالب بحقّه في تقرير مصير أبنائه من دون مساءلةٍ لأنه يعلم الأصلح لهم.

وإذ هند تمشط شعرها وهي سارحة تماماً أمام المرآة تصمّم فجأةً على الثورة، فتنطلق جرياً من أمام المرآة وتلقى بالمشط على السرير، متجهةً إلى الباب، ثم في الممر المؤدي إلى الدرج، ثم جرياً على الدرجات ثم طيراناً في القاعة السفلى إلى مستقر والدها في الحجرة الدافئة حيث هو يشاهد التلفزيون، وتقف أمامه متحفزة:

يبه لازم تقول لي شنهو اللي بينك وبين ابو مايد! لازم تحترم رغبتي ما دام آنا احترمت رغبتك ورضيت بالانفصال عن زوجي.

فوجئ الأب بابنته الثائرة الشعر والأنفاس التي أخذ صدرها يعلو ويهبط بها فخلع نظارة التلفزيون، وأخذ ينظر إليها بدهشة.

يبه لازم تقول لي، ما لك بدّ!

قعدي قعدي..

وأفسح لها مكانا بجانبه فجلست على مضضٍ وهي تنظر إليه بتحدٍ وتحفزٍ وأنفاسها ما تزال تعلو وتنخفض:

ضحك الأب بحنانٍ وأبعد الشعر عن وجهها:

يبه، آنا ما استاهل منك انك تسمعين كلامي؟

طبعا، لكن...

بس خلاص، لازم في يوم بتعرفين كل شي، بس الحين ما أقدر آتكلم.

ليش؟ ليش؟؟! يبه لازم تقول لي كل شي، لازم آعرف الحين!

بكرة يجيك أحسن منه يا حبيبتي.

(أحسن منه؟ من الذي يمكن أن يكون أحسن من أحسن رجلٍ في العالم؟) أخذت أدمعها تتساقط على خدّيها بانكسار القهر فأشاح الأب بوجهه وأخذ يتابع التلفزيون، فلم تجد حلاً غير الوقوف أمام وجهه ومطالبته مرةً أخرى بالكلام. وهنا يضيق بها ذرعاً ويقتل دفق الحنان قبل أن يكتمل فيهزمه، يقتله بغضبةٍ مفتعلةٍ ويخرج السماعة من أذنه.

تعيد الابنة السماعة إلى أذن والدها وهي ترجوه أن يسمعها ويكلمها فينتزعها ثانيةً ويبعد الفتاة عن طريقه، فتعود بتحدٍ.

اسمع يبه، آنا ادري انك تسمع بدون سماعة لو تبي، وادري انك الحين تسمعني زين، آنا عمري ما زعلت عليك مثل اليوم، باسمع كلامك بس لأني ما أحب إني أعقّك، لكني زعلانة وايد وايد، وانت تدري!

ثم عادت إلى غرفتها تمسح أدمعها التي تشعر أنها فقدت مفعولها تماماً أمام والدها. وبدأت تشعر أن الموقف أخطر بكثيرٍ مما كانت تظنُّ إذ ظل الأب متصلباً أمام كل المحاولات. حتى سعد حاول مخاطبة والده في أخته ولكن لا جدوى، والسماعة سهلة الخلع دائماً. أما ماريا التي لا تستطيع التدخل في الأمر فقد اكتفت بأضعف الإيمان، وأصبحت تستقبل راشد بنظرةٍ عاتبةٍ غاضبة.. لا يهتم!

عندما رن التيلفون عرفت هند أنه ماجد وجرت نحوه وتكلّما طويلاً ولم يصلا إلى شيءٍ ذي بال. ولم يجد ماجد بداً من استنطاق والديه للمرة الثالثة ذلك اليوم: هل نحن وضعاء إلى هذا الحد؟ هل والد هند أشرف منا نسباً؟ وتكون الإجابة: لا طبعاً، لسنا وضعاء بل إننا نعد من الأعيان، وإن كان راشد آصل منا فان مركزنا الماليّ الكبير والمعروف والذي يفوق مركزه بمراحلٍ يعدل الميزان، بل يثقل كفّتنا. هل كان بينه وبين جدي عداوة؟ لا، لم نسمع بشيءٍ من ذلك، وأصلا لم تكن هناك تعاملات بينهما... لماذا إذن؟ لماذا؟ لماذا؟

عقل ماجد لا يستوعب الطلاق بتاتاً ولا يتخيل الحياة القادمة بدون هند. كيف وقد وصل معها إلى مرحلة الانحياز الأكبر، المرحلة التي لا تراجع في الحب بعدها؟ ألم تعجبه

لقربها من الطبيعة ثم تعجبه بأظافرها المطليّة البعيدة عن الطبيعة؟ أليس متأكداً من أنها ستظلّ تعجبه حتى لو صبغت شعرها باللون القرمزيّ وأظافرها بالأسود.. أليس هذا هو الانحياز الأكبر؟

في بيت راشد يجلس والد ماجد بكبرياء منتظراً ربّ البيت الذي يأتي أشمّ الأنف ويصافح الرجل ويعتذر له عن التأخر عليه، عن التأخر فقط! ولا فائدة، لا فائدة! آسفين، ننسحب بدون إبداء أسباب! ويخرج عليّ جاراً أذيال الخيبة والغضب، هذا العجوز راشد جُنّ حتماً ولا تفسير غير ذلك...

لازم الورقة؟

طبعا، قلنا طلاااق، طلاق!

تفاهم انت معاه، آنا كلمته في المسألة عدة مرات، مب مقتنع.

على كيفه؟ قلنا طلق، لازم يطلق وبس.

قول له انت هالكلام...

وتهز الأم رأسها وهي تسمع الحوار الغريب بين زوجها وابنتها ثم تنفجر:

آنا عمري ما سمعت بهالسالفة! أيْ أُبو اللي يخرِّب على بنته مثلك؟

مريم، سكتي مالك خص!

مالي خص؟ هذي مب بنتي اللي تعذِّب فيها؟

قلت لك سكتي لا تخليني أغلط عليك قدام بنتك!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما ادري اش صار لنا.

والتفت الأب إلى ابنته ثانية:

زين، آنا باكلمه مرة ثانية، لكن انتي فهميه لو اتصل ان كل شي انتهى.

وأخذت مريم تتحسر لنفسها:

مساكين والله، ركضة من ثلاث شهور على المحلات، ما خلوا شيْ ما شروه حق البيت، والحين خلاص؟

آنا قلت له كل شي شراه بيدفع له من المهر اللي بنرجعه.

زين بياخد المهر وبيدفع، لكن مب ذنبه انه يدفع ثمن أشيا ما عاد يحتاج لها...

يووه! من قل فلوس ابوه! زين خلاص، بنعطيه ثمن كل شي شراه، ارتحتي؟

إي، الحق حق.

وانصرف مسرعاً وصمتت هي وابنتها تتفكران.

الزوجان يتزوجان مرةً أخرى. يجلسان أمام عاقد القران ثم تعود إلى منزلها ويعود إلى منزله ليجلب كل منهما حقيبته، ثم يذهبان إلى بيتهما الجميل. بيتهما يقع فوق ربوةٍ ورديةٍ اللون. يحيط به مرجٌ من زهرة البراري الأليفة، وتتطاير فوقها فراشاتٌ ساحرة الألوان. يصعدان درجه الترابيّ المزروع بالحشائش النديّة يداً بيد. يمران بالأزهار، يشمان أريجها الشذيّ ، يسمعان صوت البلابل موسيقىً ترافق خطواتهما وسرب الفراش يزفهما. ليس في الكون أحدٌ غيرهما. يبتسم لها، تبتسم له، ينظر إلى الابتسامة التي يعشقها، يتمعن فيها، ابتسامة عذبة صافية.. ليست صافيةً تماماً..

ليست صافيةً على الإطلاق..

ليست ابتسامة..

لا تعجبها الفراشات، تريد البشر.. ليس كل البشر.. فقط أمها وأباها وأخويها. تشعر بحزنٍ شديدٍ وتبكي.. تبكي كثيراً..

مسحت هند أدمعها وأغلقت دفتر التحضير، لقد حان وقت النوم، لا تعلم إلى متى ستظلّ تملأ الحقائب وتفرغها.

٢٢

ما لدنيانا هذه

لا يعلم ماجد أصل الفكرة الغريبة التي طرأت على عمته. حاول معارضتها كثيراً ولكن بعنادها المعهود تمسكت بها. وحاول أن يستنجد بيوسف ولكنها منعته. ولم يسعه إلا أن يخرج إلى النادي ويتركها لشأنها، هي حرة في نفسها...

وهكذا فُتحت البوابة في بيت راشد ودخلت منها نيلة على كرسيّها المتحرك تحفّ بها زبيدة خادمتها وشيخة زوجة أخيها. ووقفت في استقبالها عند البوابة هند ووالدتها. ووضع لوحٌ خشبيٌ على الثلاث درجات التي تؤدي إلى حجرة الاستقبال حيث مَلِك الموقف جالسٌ يدير حبات مسباحه بقلق. يعلو وجهه اكفهرار وامتعاض، ما الذي تريده هذه المرأة؟؟ لماذا كل هذا الهجوم عليه؟ ولكنه مضطرٌ إلى استقبالها بعد أن طلبت مقابلته، من العيب ألا يفعل...

ولكن الكرسيّ يقف عند بداية اللوح الخشبي، وكالحمار العنيد يأبى بإصرارٍ التحرّك صاعداً، وتصدر نيلة أوامرها بأن تكفّ محاولات دفع الكرسيّ لأعلى ويرفع اللوح، ويستجيب لها الجميع بعد إلحاحٍ فترفع كوعها متكئةً به على حاجز الدرج وهي على كرسيها. اضطر راشد إلى الخروج والوقوف عند باب غرفة الاستقبال لسماع محاضرة

نيلة. ومن خلال صوتها الكبير الذي يشي بقوة الشخصية ينساب كلامها مرتباً مقنعاً مؤثراً يجعل جمع النساء الواقفات حولها يلتفتن بين الفينة والفينة إلى راشد لسماع رده وقد ظنن أن حجته ضعفت. ولكنه لم يكن بحاجةٍ إلى أيّة حجة. سلاحه الوحيد تصميمه القويّ على موقفه. وبقيَ مصمماً بفجورٍ وطغيان - هكذا شعرن- حتى ملَّ من كلامها ووقفته هناك واستأذن منها، وهمّ بالدخول إلى المجلس قبل أن يسمع إذنها، ولكن نيلة ليست ككل الناس، ولم تكن لتسمح لراشد أو غيره بالانسحاب قبل أن تنهي كلامها. لذلك فقد رفعت صوتها الكبير أصلاً وأخذت تخوِّفه من الله إذا ما استمر في محاولة تفريق زوجين محبين بلا سبب شرعي...

بنتي وآنا مصَرَّف فيها!

هذي بنتك الوحيدة، حرام توقف في طريقها...

زين سامحيني الحين، آنا رايح داخل، البيت بيتك.

ورفعت صوتها أكثر إذ رأته يتحرك إلى الداخل:

يا بو فيصل مب زين عليك، خاف الله.

الغضب شديدٌ على وجه الرجل، وزوجته تعاني ألواناً من القلق: قلق على ضغطه الذي أصبح قابلاً للارتفاع في أيِّ لحظة، وقلق على علاقتهم بتلك الأسرة ومستقبل الزيجة، وقلق من أن يتأزم الموقف أكثر فيخرج من الرجل الحليم ما يؤذي تلك المرأة الكبيرة سناً ومقاماً...

لا بد من الاندفاع إلى الزوج وإدخاله قبل أن يفتح فمه ولكنها تأخرت في التفكير في الحل.

آنا مب زين عليي ولازم أخاف الله؟ وانتو زين عليكم؟ أبوك خاف من الله؟

اش دخَّل ابوي الله يرحمه في المسألة؟ وِاش سوَّى عشان تقول عنه هالكلام؟

أبوك اشلون جمع أمواله؟ صلي على النبي بس.

واهتز صوت المرأة الجبارة بغضبٍ وصدمةٍ وقهر:

اش هالكلام اللي تقوله؟ ليش ما تثمِّن كلامك؟ أبوي ما جمع أمواله إلا بالحلال ولا أحّد يقدر يقول عنه كلمة واحدة، وإذا انت سمعت شي غير ترى حسّاده واللي ما قدروا يوصلون مواصيله كِثْر الحصى والتراب.

صلي على النبي، انتي مرة كفو ولا تستاهلين من يغلط عليك،

لا تضيقين علي وتخليني اغلط عليك.

اللهم صلي وسلم عليه، لكن ما هقيت اني باسمع اللي سمعته، ما ظنيت منك الا كل خير.

الخير مَلفاك يا ام...

وأسرعت شيخة لنجدته:

أم مايد.

يا أم مايد، يعلم الله إن ودي اريحك واريّح مايد، لكن ما

في يدي شي، وكل شيء على النصيب.

وسكتت نيلة وهي تسخر في نفسها، من الذي في يده الشيء إذاً؟ ثم قالت وقد بدأ صوتها الجهوري يتهدج: لكن ما عليه يا بو فيصل، حشا عليي ما دخلت بيت أحّد

من عقب ما قعدت على هالكرسي إلا بيتك، وظنيت ان

دخلتي لها قيمة عندك...

وصمتت لأنه لا يجوز لمثلها البكاء أمام هذا الجمع الغفير، ولكن شيخة بكت وأخذت تربت على كتفها، وكذلك بكت هند وبكت مريم وبكت زبيدة وبكت ماريا التي تشهد الموقف من بعيد، وانخفض رأس راشد ولو كان امرأة لبكى هو الآخر. أما نيلة فقد رفعت رأسها بشمم وحاولت مسح المسكنة من على وجهها وأصدرت أوامرها بأن يُحوَّل اتجاه الكرسي نحو الباب، فدخل راشد سريعاً وهو ينادي هند بينما أخذت مريم تقبل رأس المرأة الكسيرة وتعتذر إليها بالنيابة عن زوجها، وباءت كل جهودها بالفشل في أن تقنع نيلة بالبقاء لشرب القهوة.

أما الزوج فكان بالداخل يتناول حبة الضغط من يد ابنته، ويشرب خلفها كأس الماء. ثم أطل من نافذة المطبخ فرأى جمع النسوة يتجه إلى السيارة في منتصف الحوش حيث سائق نيلة ينتظر اقتراب الكرسيّ، فطأطأ ثانيةً وبقيَ مطأطئاً إلى أن دخلت زوجته فرفع رأسه وسار إلى وكْره. ولم تقل له مريم كلمةً واحدةً إذ كانت تشعر به وتعلم إلى أيّ مدىً بلغ ألمه. ولكنه لم يغب إلا دقائق خرج بعدها منادياً هند، وجاءته تمسح أدمعها. غضبَةٌ ومساءَلةٌ من أجل تلك الدموع، توصيةٌ بمحاولة نسيان هؤلاء الناس نهائياً، ومطالبةٌ بمساعدته في الإلحاح بطلب الطلاق الرسمي من ماجد... هذا كثير.. ومع ذلك فيجب أن ينتهي هذا الشيء لينتهي معه الألم، فالتمطيط لا يوّلد إلا مزيداً من الألم..
في السيارة لمعت عينا نيلة بدموعٍ عصيةٍ أبت النزول وظلت صامتة. وأخذت شيخة ترغي وتزبد وهي تنتقد تصرفات الرجل الأرعن القاسي المتصلب العنيد "الشَرِّي"... وبين الفينة والفينة تلتفت زبيدة إلى الخلف لتلطف الجو:

ما أليش ماما، خلِّي بابا يولِّي، بُنية وايد زين لكن بابا ما في مخ. وظلت شيخة تسبُّ وتعبّر عن غضبها مع زبيدة إلى أن وصلت إلى المنزل ونقلت ما حدث بحذافيره وحتى تعقيب زبيدة إلى والد ماجد...

تليفون ماجد النقال يرن في جيبه وهو في طريقه إلى بيت عمته وإذ يجيب يندلع صوت الأب الغاضب بقراره الصارم: يجب أن تطلّق تلك الفتاة! ثم ها هو يندفع مهرولاً إلى الداخل حتى يصل إلى العمة، فإذا بها تبكي بكاءً شديداً كانت خبأته عن الجميع لتخرجه سيولاً في خلوتها تلك. وجهه يحمرّ ويمتقع غضباً وهو ينهال على عمته بسيلٍ من العتب الغاضب، لماذا تضع نفسها في ذلك الموقف السخيف؟ لماذا تترك لذلك الرجل الذي أصبح همجياً مؤخراً الفرصة كي يهينها؟ لماذا لم تسمع نصيحته؟ لماذا؟!
ثم يهدأ قليلاً ويهدئ من روعها.. في النهاية كانت تتأمل شيئاً، ونظر إلى ساقيها الممدّدتين أمامها على السرير، مسكينة، كانت تظن أنه سيكون لهما مفعولاً أكيداً، ذهبت تستجدي بهما وهي عزيزة القوم. ولولا حبها الشديد له لما أقبلت على ذلك العمل، وما أكثر ما تستدعي من الشفقة وهي في تلك الحالة...
قبل رأسها وحاول تلطيف الجوّ، ثم أخبرها عن مكالمة أبيه، فمسحت أدمعها ونطقت أخيراً:
لا، ما عليك من ابوك، قول حق هالمجنون إذا تبي الطلاق حق بنتك روح انت طلبه في المحكمة، وخل يشوف يطلقون له والا لا بدون سبب.
أكيد هو عنده سبب بس...

ما عنده سبب يطلقون علشانه، بيقول لهم ما يواخذنا؟ المحكمة ما تعرف هالكلام، بيقول لهم أخلاقه مب زينة؟ من بيشهد له والناس كلهم يعرفون أخلاقك؟ خله يدوخ...

وابتسم ماجد:

صدقيني يمه نيلة آنا كنت مفكّر في نفس الشي، وهذا اللي قلت له اياه يوم اتصل يكلمني عن الطلاق، قلت له بالحرف: إذا تبي الطلاق، روح طلبه في المحكمة.

إي خله يدوخ.

وانتي اش رايك يمه، تبين الزواج يستمر؟

إي آبيه يستمر! مب علشان البنية مزيونة وحليوة وانت تحبها وبس، بعد علشان أُبوها يقتهر وتنبط كبده.

وضحك كثيراً ثم صمت وأخذ يفكر، كيف يتعامل مع هذا الموقف، وكيف سيتعامل مع هذا الأب مستقبلاً؟ ولكن نظرةً إلى الساعة جعلته يدرك أن عليه أن يتعامل مع أبيه هو في الوقت الراهن، لذلك هب واقفاً، وأخبر عمته أنه سيعود في التاسعة.

في منزل والده أخذ ماجد يستمع مرة أخرى وبالتفصيل لحكاية عمته وعملها البطولي الذي باء بالفشل:

بس يبه امي نيلة الله يهديها غلطت، من قال لها تروح..

وارتسمت علامات غضبٍ شديدٍ على وجه الأب.

غلطت؟ وعلشان من غلطت؟ مب علشانك؟ بدال ما تلوم أمك نيلة لوم أنسابك، لو فيهم خير ما ردّوا طلب المرة وهي رايحة لهم على كرسي.. على كرسي!

آنا ما قلت ان حماي ما غلط، أنا بس أقول...

لا تقول ولا تعيد، هي كلمة واحدة: طلق بنتهم!

يعني استسلم حق الاستبداد والتسلط؟

هذا مب استسلام، هذا عقاب حق هالرجال اللي ما يوجِّب أحّد ولا يحترم الناس... هذي أختي العودة اللي سخيت لها بعيالي، وما عندي أغلى منها، وكرامتها من كرامتي.

زين، اش رايك ان امي نيلة نفسها تقول لي لا تطلق؟

تقول اللي تقوله، انت تدري انها تقول لا تطلق لأنها عارفة انك متعلق بالبنت وما تبي تتركها، لكن ينبغي منك انت انك توجّبها وتحافظ على كرامتها، هذي عَبارة أمك.

وأكثر من أمي يا يبه، ما اختلفنا، وآنا مستحيل افرط في كرامتها، بس حتى هي لها نظرة..

أيْ نظرة بس الله يهداك أيْ نظرة! هذا كله كلام ما له معنى، ولا فيه حل إلا ترك البنت، ما في الدنيا غيرها؟ البنات مكوّدين، وفيه بنات أحسن منها بألف مرة يتمنونك.

آنا عمري ما شفت أحسن منها..

استدعت الكلمة عصبية الوالد:

لا، روح حب يد ابوها ورجوله!

ويصمت الابن ويخفض رأسه، لم يدر ما يقول وهنا تدخل منيرة:

بصراحة يا مايد، لازم تسمع كلام أبوي، هيه ما سمعت كلام أبوها ووافقت على كلامه؟ وحتى طالبتك بالطلاق بنفسها عشان ترضيه..؟ ولا حاولت تقاوم.

وارتفع حاجبا ماجد:

منيرة، هند مب صديقتك؟ ما رحتي وجيتي معاها في الإمارات؟

صديقتي شيء وهالمسألة شي ثاني..

ويتدخل الأب:

شفت اشلون؟ حتى اختك مقتنعة، وحتى مرتك مقتنعة وتنفذ حق أبوها أمره ال...

على كل حال يبه، ان شا الله ما يصير إلا اللي فيه الخير.

مواكب الأيام الثقيلة تسير ببطءٍ مرير، ما لدنيانا هذه وعروضها التي لا تنتهي؟ ويحاول ماجد فلسفة الأحداث: أنا من نوعٍ لا ينبغي له أن يفرح، أو لا ينبغي له أن يفرح بسهولة، لذلك تطاردني الأيام الحزينة. أو أن الدنيا تخبئ لنا سعادةً كبرى تستحق الكثير من المعاناة قبلها؟

وفي المدرسة قالت سارة مبتسمة: يمكن أبوك ما يقدر يتركك حق رجّال ثاني. آنا سمعت انَّ فيه امهات وايد ما يحبون يزوجون بناتهم لأنهم ما يتقبلون فكرة انتقال بناتهم لرجل غيرهم.

سارة، عن الكلام اللي ما له معنى! قلت لك مية مرة، أبوي كان مستانس، كان سعيد جداً بمايد، كان يحبه مثل فيصل وسعد، وكان راضي على زواجنا من قاصي قلبه.

يوووه، أبوك لغز وآنا ما اقدر احله.

صح، حتى آنا ما اقدر احله.

٢٣

أرجوك لا تسبب مشاكل مع أبوي.

ما أقدر أطلقك يا هند، ما اقدر، خل ننتظر لحد ما تطير عنه شياطينه، أو نخليه يواجه الواقع! الواقع إن احنا متزوجين.

ما في فايدة يا مايد، مستحيل يرتاح ويرجع يفكر بعقل إلا إذا نفذنا له رغبته. أرجوك اسمع كلامي. آنا متأكدة إنه بيهدا ويفكر بطريقة ثانية لو نفذنا له رغبته.

لا. يبي الطلاق يروح المحكمة وما عندي غير هالكلام.

ويرن التلفون في غرفة ماجد، ويأتي صوت هند الغاضب:

ليش تسّكر في وجهي؟

لأنَّ كلامك مب عدل، حتى انتي تقولين طلق؟!

يعنى اقتراحك هو اللي صح، آنا مستحيل اقهر أبوي، أفضل أعيش سنين على أمل انه بيرضى في يوم من الأيام، ولا أسوي شيء ممكن يرفع ضغطه ويقتله.

هند، انتي قاعدة تهدمين حياتنا، وكل اللي بنيناه.

انت طلق وآنا متأكدة ان كل شيء بيتصلح في المستقبل، ما دام احنا متمسكين ببعض كل شي بيتصلح.

هند، انتي أحّد ثاني متقدم لك؟

ويرن التلفون في غرفة هند، ويأتي صوت ماجد الغاضب:

ليش تسكرين في وجهي؟ آنا مب عاجبني إصرارك على الطلاق..

أبوي اللي مصّر، ليش ما تحاول تفهم؟

وتستمر المفاوضات التلفونية العقيمة.

مستحيل، مب قادر اصدق انك تبين في الانفصال.

مؤقتاً، مؤقتاً لحد ما نقنع ابوي.

وليش ما نقنعه واحنا متزوجين؟

رافض... لازم نريحه لحد ما يهدا.

اخاف إذا انفصلنا ما تكون لنا فرصة ثانية.

لازم تكون لنا فرصة ثانية، انت تحسب اني ممكن اخليك تروح بهالسهولة؟

كلام يا هند، اللي ما تقدرين تسوينه الحين مستحيل تسوينه في المستقبل.

تصيبها الكلمة في مقتل.. تصمت ثم يأتي صوتها حزيناً:

آنا ما اقدر اسوي شي الحين لأن ابوي متشنج وآنا خايفة عليه... ما اقدر اتسبب له في شي..

لكن تقدرين تخسريني آنا بسهولة..

طفرت من عينها دمعة إذ أصابتها كلمته في مقتلٍ آخر:

آنا متأكدة انك فاهم كل شي وما ادري ليش هالتعذيب.
ويأتي صوته هامساً حائراً:
تعذيب؟

طبعاً تعذيب.. كأنك ما تعرف ابوي وما تعرفني، لو كنت تعرفني زين، كنت بتعرف اني ما أبيعك بأي ثمن..

وطلب الطلاق؟

ترضية مؤقته حق الوالد..

وما اقدر أماطل؟

لا، من فضلك لا تماطل، ابوي تعبان وايد وآنا خايفة عليه من أمراضه..
آنا بعد تعبانة وايد..

بس ما اقدر افرط فيك، اشلون انتي تقدرين تتركيني؟

يا حبيبي مؤقتاً ، كل شيء مؤقت، أبوي وايد طيب، يحب يمشّي كلمته لكن ممكن يقتنع بسهولة بعدين.

المشكلة إني ما ادري اش طول هالمؤقت..

المؤقت يا مايد مؤقت مهما طال.. اسمه مؤقت.

زين، بافكر في الموضوع، بس ترى إذا طلقتك.. يمكن ما اقدر ارجع..
تتشكل غمائمٌ داكنةٌ أما عيني هند، ولكن والدها المتشنج يريد الورقة.
وتنقطع المفاوضات أسبوعاً وبعدها يدقّ ابراهيم الباب ويضع في يد ماريا ظرفاً ويعود إلى سيارته. وتختطف الأم الظرف من يد الخادمة وتخرج ورقةً من داخله، تقرؤها وتمسح

أدمعاً سالت على زيجةٍ موؤدةٍ ثم تذهب بها إلى حيث وكْر زوجها فتجده يصلّي فتضعها بغضبٍ على المنضدة وتخرج وهي تخبره أنها ورقته التي طال انتظاره لها، ثم تلتفت إليه ثانيةً قبل أن تبتعد وتقول بصوتٍ عالٍ:

قرّت عينك!

فإذا بهند تتساءل وهي تنزل من الطابق الثاني:

من جايّنا؟

تتلعثم الأم ثم تقول بصوتٍ منخفض:

ورقتك، قعدتوا انتي وابوك تحنّون على الرجّال لحد ما خليتوه يطلق!

دخلت الابنة مذهولةً إلى الحجرة واختطفت الورقة وأخذت تقرؤها ثم وضعتها بسرعةٍ قبل أن ينتهي والدها من صلاته وجرت إلى غرفتها تواري فيها أحزانها وانهيارها. حتى الأب لم يفرح بها، لم تبد عليه نظرة الانتصار عندما رآها بل تلقّاها كما لو كانت لكمةً على وجهه، ثم وضعها في مغلّفها وسلّمها لزوجته دون اهتمامٍ كي تحفظها أينما شاءت.

مع استفحال الشتاء تأتي الأنسام باردةً من نافذة هند إذ فتحتها ووقفت قبالتها دقائقَ بعد أن ارتدت ملابس النوم. النافذة تُطلّ على الجزءِ الخلفيِّ من الحديقة وتُظهر الباب عند الالتفات إلى اليمين، الباب الذي رأت ماجد يلِجَه مراتٍ لا حصر لها، وأمامها وإلى الأسفل تقف أشجار اللومي واللوز والتينة الوحيدة وشجرتا الجوافة اللتان أثمرتا مرةً واحدةً منذ أربع سنوات، ثم أسفل منها مساحاتٌ من العشب المبلل تتصل بالمساحة المبلطة المتّصلة بالبيت. وهناك طقم كراسي الحديقة الأبيض الذي جلست عليه كثيراً

مع ماجد وأبيها، يظهر نصفه ويختفي نصفه الآخر عن ناظريها.. كل شيءٍ كان هادئاً وبارداً ومبللاً بماء المطر الذي تساقط قبلها ببضع ساعات.

دخلت الأنسام إليها باردةً لذيذةً ولكنّها ناقصة. لم يعد شيءٌ مكتملاً، ويبدو أن ماجد كان يجعل الأشياء تكتمل. كان كاللمسات الأخيرة لأيّ شيء، ومن دونه تصبح الأشياء ناقصة، ويصبح المستقبل مخيفاً يهدد بالكثير من الأحزان، هل يعلم الوالد ما فعل بابنته؟ الوالد كان مختفياً تحت اللحاف مغمض العينين لا الدماغ، ويعلم جيداً ما فعل بابنته، ولكنه لا يستطيع شيئاً، قُضي الأمر وخرج كل شيء - أو كان من الأصل خارجاً- من يده...

كيف قمتَ بذلك؟ كيف استطعت؟ بماذا شعرتَ وأنتَ توقّع تلك الورقة التي تنهي القصة؟ ولكنني أنا من أصر، أصررت لأن أبي أصر، وشعرت أنه يكاد يجن إذا لم تنفذ له تلك الرغبة، ولكن ماذا كان شعورك وأنت تستخلص تلك الورقة؟ مسكين، لابد أنك أصبحت تكرهني الآن.. والآن؟ بعد أن خرجت من أزمة فقدان الأخ تفقد الزوجة التي أخرجتك من تلك الأزمة...
وانهارت هند تحت لحافها وأخذت تنتحب فوق الوسادة، ماذا فعلتُ بهذا المسكين، كيف تلاعبت به بالاشتراك مع أبي؟ ولكن التلاعب بالأب أيضاً صعب.

وفي الصباح نهضت هند محمرة العينين، ووقفت أمام المرآة تصلح من شأنها، لا، لا يمكن أن تذهب إلى المدرسة بهاتين العينين، لابد من إجراءٍ صغير..
أخذت الكرة الشفافة تكبر وتكبر وتقترب من عينها وارتعبت المسكينة ولكن عليها المواجهة، الكرة ما تزال تكبر وتزداد شفافية ولم يبق إلا أن تنفجر...

تم انفجار الفقاعة في العين اليمنى، فأغمضت هند عينيها، ولكن أمها مشغولةٌ بأشياء كثيرةٍ ويجب أن تنجز كل شيءٍ بسرعة، لذلك فقد فتحت عين هند اليسرى بيدها لتفجّر فيها قنبلةً أخرى. وبعد أن انتهت العملية أغلقت الزجاجة تاركةً هند مع عينيها الملتهبتين وأحزانها وخرجت لشأنها. أما هند فقد تسللت إلى التليفون، لقد أرادت أن تطمئن على ماجد بعد الورقة. يجب أن تسمع صوته ولو بكلمةٍ واحدةٍ فهي تعرف نبراته جيدا وتعرف إن كان سعيداً أو حزيناً أو غاضباً أو يائساً أو مصدوماً من كلمةٍ واحدة، كلمة "ألو" تكفي جداً، وسمعتها وأغلقت الخط...

لا لم يكن يبدو عليه الحزن أو الصدمة، وكأن الطلاق شيءٌ طبيعي، هل هي مخدوعةٌ فيه؟ مستحيل! ماذا إذاً؟

لا تعلم شيئاً، لا شيء على الإطلاق.

في السيارة تتلفت هند يميناً وشمالاً، تبحث عن سيارةٍ خضراء اللون، ها هي واحدة، ولكنها ليست هي، وها هي أخرى.. وأخرى وأخرى.. كل هذه السيارات خضراء! أين كانت مختبئةً قبل ذلك؟

المكان: مضيق في ساعة الزمن الرملية

الزمان: لحظة في زمن غير محدد الملامح

الجو: أثيري له ملمس السحاب

هل تعرف لماذا نشعر بالألفة مع من نحب؟ لأن الالتقاء لحظةٌ مقدّرٌ لها منذ الأزل. كان أسلافي وأسلافك في العصر الحجري يتنقّلون شُعث الشعور من مكانٍ إلى مكانٍ مرتدين جلود الحيوانات الفجّة وهم لا يعلمون أنهم حلقاتٍ في سلسلة لقائنا.

أريد أن أفعل شيئاً.

تستطيع أن تفعل شيئاً ليكتمل بنيان أشياء كثيرة إلا هذا الشيء، جماله في بعده عن شعوذة الأحداث والظروف.

لسنا جماداً مسلوب الإرادة.

لا تظن أن قصص الحب التي تنتهي نهاية سعيدة مخططٌ لها دائماً من قِبَل المحبين. إنهم يشعوذون الأحداث ويظنون أن ما يصلون إليه نَتاجَ تصرفهم، ولكن لقاءهم كان مقدراً من قبل أن يتسكع أسلافهم بتلك الجلود.

ألا نسعى؟

نعم، للوصول إلى الغاية الكبرى.

أليس الحبيب غاية تستحق السعي؟

بل هو وسيلة، وإن كان فجزءٌ من غاية.

لماذا إذن أشعر بكل هذا الألم إذا فارقت حبيبي؟

أيضاً أشعر بالألم عندما أجوع، هل يجعل ذلك من الطعام غاية؟

أشعر أنني صغير..صغير...

نحن كذلك..

(وهاهو التدفق القسري يأتي لينهي اللحظة)

انتظري، لا تبتعدي..

أحاول، ولكن...

هاتي يدك.

يمد ماجد يده وتمد هند يدها ولكن التدفق القسري يفرض مشيئته ولا تجد هند في يدها إلا التراب...

لماذا لا يرفع أحدٌ تلك اللوحة من على جدار الحجرة؟ تأملها راشد اليوم وكم هيجت من ذكريات، واكتشف في النهاية أنه لا يستطيع أن يكره ماجد صهره النحيف ذي العينين الحالمتين بلون العسل. بل إنه لا يستطيع أن يتوقف عن حبه وقد يعجز في النهاية عن المقاومة. اللوحة صفعته بهذه الحقيقة. عندما حدّق فيها تذكّر من أحضرها له ليسعد بمرأى الأيام القديمة ومتعلقات الماضي كالسفينة التي في اللوحة، السفينة التي مرّ راشد بأصابعه عليها في إعجابٍ شديد.. تكاد تخرج من الصورة، كيف يرسم الناس الأشياء بهذه الواقعية..

إلى جانبها كان وجه ماجد المبتسم ذكرى في مخيلة راشد. كان يحبه حقاً. شعر أنه تمازج معه فكرياً. لم يشعر بأن أحد ابنيه انسجم معه فكريّا في أحد الأيام كما انسجم ماجد. كونه أباً لهما كان يصنع حاجزاً بينهما وبين أن يهتما بأفكاره وذكرياته، أما ماجد العاشق لكل ما ينتمي إلى هذه البقعة من العالم من بعيدٍ أو قريبٍ فكان يعجب بحميه المدافع أبداً عن الأيام الخالية وقيَمِها، ويتبادل معه الأشياء. أخذ صورةً فوتوغرافية نادرةً لمبنىً قديمٍ قبل أن يهدم ويختفي من سطح الأرض وأعطاه اللوحة، كما أخذ الذكريات وأعطاه التطلعات. وكم انتشرت أصوات ضحكاتهما قرب غرفة الاستقبال. لم يكن راشد في نظر ماجد رجلاً كبيراً يُحترم ويُساير كما هو في نظر فيصل، أو رجلاً متحجّر الفكر يفرض حمايته القسرية على الجميع كما هو في نظر سعد، بل رجلاً له فكرٌ وفلسفةٌ جديرةٌ بالاهتمام، وصديقاً يشاركه احترام الذات والتراث..

غض البصر عن اللوحة المعلقة وشعر بأسى كبير، وبأنه يفتقد ذلك الصديق كثيراً.. ليته يُعلمه أنه ليس ضده على الإطلاق..
تدخل مريم فترى عينيه لامعتين.

مل ماجد الأيام الحزينة التي تلبد له دائماً خلف الباب. مل الهموم والأحزان، مل الأحلام. هو أيضاً يملأ الحقائب ويفرغها، ولا يعلم متى النهاية. لماذا لا يجد في يده شيئاً؟ لماذا يده معطلةٌ مثل يد هند. أما يد هند فهو لا يريدها أن تمسك التراب طويلاً، وإن كان لابد من ذلك فليكن تراباً خصباً تنبت منه الخضرة.. يكاد يرى يدها تحمل الورد والخضرة. الأيام تمرّ والأحوال ثابتةٌ بشكلٍ مضجر. ألا يفترض أن للدنيا عجلات تدور؟ ربما كانت تدور رغم كل شيءٍ ولكن ليس في الاتجاه المطلوب. يمشي بضيقٍ وضجرٍ إلى غرفته. المكان مطفأ.. المصابيح لم يحاول أحد أن يضيئها. لابأس، هاهي مضاءة الآن ولكن حياته ما تزال مطفأة لأن هند غائبة..
الدرج محبط، مملٌّ جداً، كلما صعدت درجةً جاءتك أخرى، شيءٌ في منتهى السخف.. الطابق الثاني مطفأ، الغرفة مطفأةٌ، وعندما أضيء مصباحها بدت غير مرتبة. فراشه في حالةٍ مهلهلةٍ ومطفأة.. الشاي لم يصل بعد، زبيدة مطفأة! لم تضئ المصابيح ولم تأته بالشاي بسرعة.. الشاي ها هو يصل، شكراً يا زبيدة.. ولكن ما هذا الطعم الرديء، طعمه ضعيف وسخيف.. حتى الشاي مطفأ!

سكب الشاي في مغسلة الحمام ثم ذهب بالكوب الفارغ تسللاً –كي لا تراه زبيدة– إلى حجرة عمته. أمه وأخته منيرة هناك. صنعت له أمه كوب شاي غير مطفأ وجلست تحكي له عن الحِيّة إذ اقترب شهر ذي القعدة: لا أعلم من أين جاءت ولكنه كان

تقليداً من تقاليد ليلة عيد الأضحى، يبذر شعيرٌ أو رشاد في سلةٍ من الخوص أو علبة أناناس يصنع منها إصيصاً وتعلق في أحد أركان البيت وتسقى كل يوم. وأحيانا يضع الأطفال لها شيئاً من الأرز المطبوخ إشراكاً لها في غدائهم. وفي ليلة العيد يخرج الصغار جميعاً إلى الشاطئ ليرموا للبحر بهذه السلال التي يكون قد نما فيها الزرع وجمل منظره، وهم يغنون: يا حِيِّتي يا بِيِّتي، غديتك عشيتك، يوم العيد لا تشتكين عليّه...

ما معنى هذا التقليد؟ يقال إنه يفعل ليعود الحجاج سالمين إلى البلد، كتقديم القربان، نوع من الخرافات ولكن كان جميع الأطفال يزرعون حيّة حتى لو لم يكن أحد ذويهم غائباً.

انبهر ماجد كثيراً بالفكرة، لم يعاصر هذا التقليد إذ انقرض قبل مولده بما يقرب من الثلاثين سنة، ولكن أعجبته فكرة الزرع، أن يتعلم الطفل كيف يضع بذوراً ويراها تنمو يوماً بعد يومٍ أمام عينيه خُضْرةً بهيجة... فكرةٌ ساحرة، خلابة، فيها تقديرٌ للخضرة والطبيعة... ولكن النهاية... النهاية محزنةٌ ولا تنفع البيئة.

ضحكت منيرة من أخيها، البيئة، البيئة، ما كل هذا الاهتمام؟ ولكن ماجد يرى أن هذا الاهتمام في محلّه. يجب أن يتعلم الإنسان كيف يقدّر الزرع، التراب، الهواء، كل شيءٍ طبيعي على الأرض.. ثم هذا المعنى الجميل وإن كان خرافة، أن يزرع الطفل زرعاً ويعتني به لكي يقدمه قرباناً من أجل أن يعود والده أو جدته أو عمه سالمين، إنه معنىً ساحر..

وتبتسم منيرة لأخيها وتنهض عائدةً إلى بيتها وتنهض والدته عائدةً إلى بيتها ويبقى ماجد مع عمته الستينية يهيل عليها الأسئلة عن ذكرياتها عن الحية، كيف كانت تذهب

مع الأطفال إلى الشاطئ، كيف يمشون المسافة مهما كان طولها إلى البحر على ضوء القمر وكيف وكيف...

نهض مبتسماً، لقد ألهمته الحية كثيراً من التأملات التي عاش تحت تأثيرها أياماً. وتذكر هند، قد تنوي الذهاب إلى الحج، ولكنه لا يريدها أن تذهب قبله، يريد أن يأخذها هو معه. ولكن لو ذهبت فسيزرع لها حِيّة، ترى هل ستعود إليه بسرعة لو فعل، وابتسم للفكرة...

وظل يفكر في الحية، يسحره عنصر الخضرة الذي يلمسه الأطفال تارةً وعنصر الخرافة تارة.. لابد أن يكون لهند نصيبٌ في كل شيء..

مقاله الجديد تناول الحِيّة وفكرتها من وجهة النظر البيئية، وطالب بإحيائها "بتصرف"..

وفي النهاية أغرى منيرة بدعوة أصدقاء طفليها وأبناء شقيقتهما الأخرى وأصدقائهم وأبناء زوج عمته وأصدقائهم إلى حفلةٍ يغرس كل منهم فيها حيةً في حديقة منزل عمته يكون قد زرعها قبلها بثلاثة أسابيع في سلةٍ صغيرة. وأشرف على حِيّتيْ عبدالله وحنان بنفسه، وابتهج وهو يراهما تنموان سريعاً ويرى اهتمام الطفلين بهما وتباهي كل منهما على الآخر بحيته. زرع عبدالله شعيراً وزرعت حنان رشاداً، فأصبح عبدالله يتباهى بسرعة نموِّ زرعه بينما تتباهى حنان بجمال أوراق زرعها.

ليلة العيد كانت ليلةً مشهودة.. غنىّ ثلاثون طفلاً للحية على شاطئ البحر ثم بدلاً من أن يلُقوا بها في البحر غرسوها في حديقة منزل العمة، في المساحة الفارغة التي كان ماجد يراها ناقصة. وغنوا لها ثانيةً وهم يغرسونها في الحديقة الواسعة تحت ضوء القمر. ومن غرفتها كانت نيلة ترقبهم مبتهجةً بانتشار الخضرة على أيدي هؤلاء الصغار، كان

منظرهم وهم يغنون ويؤرجحون سلالَهم الصغيرة ثم يغرسونها في التراب تحت ضوء القمر منظراً به لمسةٌ أسطورية لا تنسى.

٢٤
وانطفأ المصباح الصغير

الكلام يأتي همهمةً عاليةَ الوقعِ ومزعجةً ومؤذيةَ لشعور المدرسين. توقفت هند عن كتابة الجملة على اللوحةِ البيضاء والتفتت إلى الخلف:

للمرة الرابعة أقول لكم، اسكتوا يا بنات، ورجاءً لا تخلّوني أعصّب عليكم.

وما هي إلا لحظات من سكوتهنَّ حتى بدأت الهمهمة مرّةً أخرى بهمسةٍ أو همستين ثم زادت الهمسات وأصبحت همهمةً عالية الوقع مرةً أخرى، فألقت هند القلم بعصبيةٍ والتفتت إليهن ثانية.. سكتت الطالبات في الحال وأخذن ينظرن إليها وكأنّ كل طالبةٍ تريد أن تثبت لها أنها لم تسهم في تلك الأصوات المزعجة.

زين، جايين تضيعون الوقت، آنا ما عندي مانع.

وأخذت تمر بعينيها بينهن، كلهن صامتاتٍ وهي تنظر إليهن.. جبانات! وقحاتٌ خلف ظهرها جباناتٍ أمام عينيها، كلهن هكذا، أرادت أن تقول لهن ذلك ولكنها خافت أن تنفلت منها أعصابها أكثر وأكثر، ونظرت إلى الساعة فوجدت أن هناك متسعاً من الوقت لإكمال الدرس، ولكنها لم تجرؤ على التوجه إلى السبورة، عادت لا تطيق تلك

الهمهمة، لذلك فقد استندت إلى الحائط وطلبت من إحداهن أن تكمل الجملة وتبدأ الإعراب. لا أحد يعرف إعراب "ريثما". غبيات، مهملات، مستهترات! وبدأت الشرح ثانيةً، وذهبت علامات الغضب على وجهها، فانبثقت همسات، ثم علت الهمسات... هذا كثيرٌ جداً. تقف جميع الطالبات بأمرٍ من المدرسة.. وتجلس المدرسة ناظرة إليهن ويقف الدرس. تنظر الطالبات إلى الساعات.. بقيَ من الزمن أربع دقائق تقضيها هند بين النظر إلى وجوه الطالبات المتململة والساعة إلى أن يرن الجرس.

ما الذي يحدث لي، هل أوشك أن أفقد أعصابي، ألم تكن الهمسات والهمهمات جزءًا من الحصة؟ لماذا كنت أحتمل الهمسات كل يومٍ واليوم لا أطيقها؟ أليس هؤلاء طالباتي العزيزات اللاتي يقدمن لي الورد في الصباح واللاتي أفتح قلبي لمشاكلهن؟ يبدو أن التوتر في المنزل استنفد أعصابي.. تنهدت هند آسفةً على حالها وأخذت تُعد الدفاتر التي ينبغي تصحيحها ريثما يدق جرس الفرصة وتأتي زميلاتها. غالبتها الدموع، وتعبت وهي تحاول قمعها، ونجحت بالفعل في إخفائها عن كوثر وزينب عندما تظاهرت بأنها لا تستطيع رفع عينيها من على الدفاتر وهي تكلمهما. ولكن سارة شعرت بكل شيءٍ، إلا أنه لم يكن في يدها شيء. ويمضى الوقت وتجفّ أدمع هند مع جرس الفرصة وتسير مع المجموعة إلى غرفة الرياضة بقيادة صاحبتها كوثر.

توقفت إحدى المدرسات لحظةً عن الأكل:

تصورا آنا شفت موقفنا هذا من خمس سنين، واحنا في الجامعة؟ شفت نفسي معاكم في هذي الغرفة على اسفنجة الرياضة هذي ناكل سندويتشات فلافل...

اشلون شفتينا؟

ما أدري، كأنه طيف، كأنه حلم.. بس ما كان حلم، كنت واعية، وكنت في مكتبة الجامعة أدوّر كتاب...

ممكن، آنا سمعت إن الناس ساعات يشوفون مشاهد من المستقبل.

وتوقفت هند أيضاً عن الأكل، وأرسلت نظرةً إلى سارة، يجب أن نخرج لنتمشى قليلاً، الفلافل صعبة الهضم...

سارة، آنا شفت مشهد مثل اللي تقول عنه فوزية، كان المشهد فيه مايد قبل ما اتعرف عليه...

ثم ابتسمت ابتسامةً كبيرة: كان فيه أطفال بعد.

وابتسمت سارة، لا تؤمن أبداً بهذه الأشياء وتنصح هند ألا تنساق وراء الأوهام وأن تفكر بإيجابية، ولكن من يعلم؟

أصبح في نفس هند مصباحٌ صغير، ولكنه غير موثوقٍ به ويكاد الواقع وتجمُّدُ الأحداث يطيح به. وها هي الأيام تُضعف وهجه شيئاً فشيئاً حتى تطيح به رياح أواخر الشتاء. وفي الحقيقة أن رياح أواخر الشتاء أطاحت به أبكر مما تخيلت هند.

في البقالة وقفت سارة تسأل أحد العمال عن أحد أنواع الحليب وإلى جانبها وقفت هند بمللٍ تنتظر نهاية اللقطة، فإذا بها ترى لقطةً أخرى من بعيد. ماجد مع أخته منيرة وابنتها وابنة عمه التي لم ترها إلا مرةً واحدة عندما دعتها منيرة إلى العشاء في أحد الأيام السعيدة الخالية. كانوا جميعاً هناك في أحد أركان البقالة. وبُنيت في الحال القصة المخيفة التي لم تخطر لهند على بالٍ حتى في أحلك الأوقات. انصرفت ببصرها في الحال

وأولت تلك المجموعة البعيدة ظهرها وألقت بعلبة الحليب من يد سارة واقتادتها خارج المكان غير عابئةٍ باحتجاجاتها، وفي السيارة أخبرتها بصوتٍ مخنوق عن تلك القصة... يمكن...

أكيد مشروع زواج. بس عمري ما تخيلت انه بيستعجل لهذي الدرجة.

هند، انتي مجنونة بصراحة، ما في أيْ شيْ يدل على نية زواج.

مب قادرة تشوفين هالدليل اللي مثل عين الشمس؟ ليش يطلع مع بنت عمه في طلعة عائلية هالشكل، إحنا في مجتمعنا تصير طلعات من هالنوع؟

لا، لكن يمكن...

لا تقولين يمكن ويمكن... مع ان احساسي الداخلي يقول انه مستحيل يفكر يتزوج غيري.. مستحيل ييأس مني بهذي السرعة...

شفتي اشلون!

لكن اخته وأمه وأهله كلهم، أكيد انهم يلحّون عليه ليل نهار عشان يتزوج. مع إنّ منيرة المفروض انها صارت صديقتي...

اصبري يا هند، آنا في أقرب فرصة ان شاء الله أحاول اسأل بدرية.

لا! لا تسألين بتاتاً، أنا ما ابي أعرف أي شيء.

مب قايلة لك شي، لمعلوماتي الخاصة على الأقل...

لا! انتي ما تعرفين تحتفظين بسر معاي. من فضلك خلّك في حالك، واتركي الفضول عنك.

زين، حد منهم شافك؟

لا، كانوا بعيد وآنا عطيتهم ظهري بسرعة... وهذا ما يهم أصلاً لأني ما...

والتفت إلى سارة بجديةٍ وهي تلوّح بأصبعها:

سارة، أحذرك! تحمّلي تكلمين بدرية وتِسئلينها، أحذرك!

وهدأت سارة من روْع صديقتها المجروحة الشعور وصمتت الاثنتان.

هند وحيدةٌ تصحح بعض الدفاتر في غرفة المدرسات وتأتيها سارة بخصلاتها الملونة وبطنها الآخذ في الانتفاخ باسمةً:

تعطيني الأمان لو تكلمت؟

تفضلي... خذتي شي من أغراضي؟ ورق دفاتر، ألوان، تقاولتي مع البنات على حصة من حصصي...

لا، سألت بدرية...

وتلقي هند الدفتر بعصبيةٍ أمامها ويكفهّر وجهها غضباً:

آنا ما حذرتك؟ من فضلك إذا بقت عندك ذرة شعور احترمي رغبتي ولا تقولين أي شيء.

ثم تشيح بوجهها وتسد أذنيها بقوة. تمنت في تلك اللحظات لو كانت لديها القدرة كوالدها على انتزاع السمع من أذنيه وقتما يشاء، ولكن سارة تقترب منها وتقول ساخرة:

يا جبانة، واجهي الواقع. اسمعيني بس، آنا ممكن أأذيك؟

طبعا ممكن! وأصلاً انتي أذيتيني وايد يوم سألتي بدرية بعد تحذيري ورجائي.

زين، ما دام تسمعين، اسمعي...

وأحكمت هند إغلاق أذنيها وهمت بالنهوض ولكن سارة منعتها وهي تقول:
بنت عمه ما كانت رايحة معاهم، تلاقوا معاها بالصدفة في البقالة!
وهدأت هند والتفتت إلى سارة التي واصلت:
ولو صبرتي خمس دقايق كنتي بتشوفينها تروح مع سواقها وتتركهم، ولا في أي نية لا للزواج ولا للخطوبة.
وتنفست هند الصعداء.
جبانة! على كل حال فيه شي ثاني ما أدري زين والا لا... طلعت له بعثة لأمريكا كان طالبها من زمان.. وهو يمكن يقبلها.

انتي متأكدة؟

إي بس هو مأجّل البت في الموضوع ما ادري ليش، ومن استنتاجاتي الخاصة أظن انه يبي يردّك قبل ما يروح.

يردني؟ ليش هو بكيفه والا بكيف ابوي؟

بصراحة ابوك يبي طق...

بصراحة انتي اللي تبين طق! عنيدة وشيطانة، وألحين تغلطين على أبوي.

كانت هند تبتسم وهي تقول كلماتها الأخيرة وهي تتخيل أباها يُضرب كالأطفال بيد سارة، ولكنها عادت وسهمت، لقد كان ينتابها شيءٌ غير مريح. فكرة سفر ماجد أخافتها كثيراً. كانت تريده أن ينتظر معها إلى الأبد، أطلقك أنا وأبي وعليك الانتظار إلى الأبد بدون أيّ مؤشر يدل على أيّ شيء، وإلا فلست حبيبي..

أثناء الغداء أعلنت هند النبأ الكبير، وأخذت الأم تتحسر على الشاب الوسيم الطيب القلب الذي فقدته ابنتها والتقط الأب الرسالة وكالعادة تظاهر بأنه لم يلتقطها، وتنحنح وقال:

صبّي لي ماي.

وأخذت تملأ الكأس وهي تنظر إليه نظرةً عاتبةً ولكنه اختطف الكأس وشربه ثم أخذ يحمد الله، ويمسح يده.

لا فائدة من هذا الأب، لو كان فقط أقل كتماناً!

وها هي الأيام تمر خاويةً مرةً أخرى. لا أحداث جميلة، لا أخبار سارة أو سيئة، لا شيء على الإطلاق...

بقيَ شهرٌ تقريباً وتنتهي عدة طلاق هند. ولا يبدو أن الأمور توحي بأيّ تغيير. والحياة تمر برتابتها على هند، زيارة يوم الجمعة لفيصل وأسرته، ولعبها مع أطفاله أو بهم، ومرض أبيها المعتاد الذي يُرقده كل عامٍ مرةً أو مرتين بارتفاع ضغط دمه...

هند تناوله حبة الضغط وتسقيه الماء ثم تجلس بجانبه تحاول التسرية عنه وتلبية طلباته الكثيرة، وفي الليل تسمع الموسيقى القادمة من غرفة سعد. أحياناً يرن الهاتف وترفع السماعة فيغلق الخط في وجهها، ماجد يحاول الاطمئنان عليها كما تفعل هي، ولكن يبدو أن مرات الاطمئنان أخذت تتباعد.

وها هو الأب يُشفى بعد أيامٍ قليلة ويعود إلى عاداته القديمة، وتلفزيونه وأخباره وبرامج حيواناته ومصارعاته الحرة. والشتاء يلفظ أنفاسه الأخيرة، يلفظها رياحاً في منتهى

السخف. الرياح تحرّك الشجر والكرسيّ الهزاز بالحديقة وتصدر أصواتاً لا تساعد على النوم في الساعة الثانية ليلاً، وما بال القطط لا يحلو لها الشجار إلا في هذه الأوقات؟

فتحت هند النافذة وأخذت تهش القطين ثم تصرخ بهما ولكن لم يكترث بها أي منهما. ولم تجد ما تلقي به عليهما، فأغلقت النافذة بعصبيةٍ وانطلقت نحو الباب، ولكن هناك من سبقها إلى الدرج، الوالد الذي طلب إليها أن تستريح وتتركه يقوم بالمهمة.

القطاوة وقظوك من النوم يبه؟

لا، آنا وقظني صوتك، قلت أكشهم عنك.

آنا آسفة يبه، بس ازعجوني وايد وايد..

زين أنا رايح لهم، روحي انتي دارك.

ذهبت إلى غرفتها واختفى صوت القطط، ولكنها فتحت عينيها ثانيةً بعد قليل. الرياح مزعجةٌ جداً. لا تكتفي بهزّ الكرسيِّ والأشجار، الآن أصبحت تجرف شيئاً على الأرض هنا وهناك بشكلٍ يوتّر الأعصاب. أطلّت من النافذة مرّةً أخرى فرأت علبة أحذيةٍ فارغةٍ ملقاةٍ على الأرض. يبدو أن الوالد ألقى بتلك العلبة ليتخلص من القطّين فأصبحت أشدُّ إزعاجاً منهما...

غطّت وجهها وحاولت تجاهل الصوت، ولكن ما أصعب ذلك. ومرة أخرى خرجت من الغرفة وانطلقت إلى الحديقة، وفيما هي تلتقط العلبة سمعت صوت نافذةٍ يفتح من فوق فرفعت رأسها. وهناك يطلّ وجه أبيها، فيرى العلبة في يدها فيهزّ رأسه مستهجناً ومتضايقاً.

أغلق الأب النافذة وجلس على حافة السرير يتنهّد حائراً، مسكينةٌ هذه الفتاة، لقد استعصى عليها النوم. والتفت إلى أمها فرآها نائمةً بَيِّنةَ النوم فحسدها على ذلك، ولكن لم لا تنام قريرةَ العين، أليست مرتاحة الضمير على الأقل؟

٢٥

رحلة إلى السفح الآخر

راشد جالسٌ على السفح. ينظر إلى الأسفل فيرى المسافة قريبةً من الأرض، وينظر إلى فوق فيرى القمة ما تزال بعيدة. لقد أصبح يتسلّق عائداً كثيراً هذه الأيام. لقد كان يظن أنه استراح، ولكن ها هو يتجشّم مشقّة العودة. مسح جبهته وشعر بجفافٍ في حلقه فاستنجد بماريا وعاد يتسلق. ثم اختطف الكأس من يد ماريا وشرب نصفه وعاد يتسلق..

ما أشق التسلق، ما أشق الاضطرار إليه. يمسح العرق عن جبهته ويتنفس بعمقٍ ويتسلق حتى يصبح في القمة. ولكنها قريبةٌ ورحلته بعيدةٌ لا تبدأ منها. القمة كان قد وصلها بعد الحكاية، والحكاية بدأت قبل القمة بكثير، بدأت على السفح الآخر...

شعر بالاكتئاب وهو يرى السفح الآخر أسفل منه. كيف سيهبط؟ ما أصعب الهبوط! حتى الصعود كان أسهل منه لأنه صار محفوفاً بالألم وبأشياء أخرى كثيرة. تجاوُز الألم يجعل الإنسان ينساه أو ينسى كثيراً منه ولكن العودة إليه تشحذ الأشواك القديمة.. ومع ذلك فلا بد من النزول...

الأشواك لها وخزٌ مؤلمٌ في جسده، تدميه، ولكن لابد من النزول. إنه ليس شيئاً يُقْمَع إن أُريد له القمع، ولكنه شيءٌ يَنزلِق إليه الناس وهم له كارهون.. ينزلقون إليه رغم إرادتهم، وها هو ينزلق على الدرب الشائك إلى أن يصل لتلك النقطة على السفح... وصل أخيراً..

والده هناك. كان الوالد أصغر منه قليلاً، وكان يهزُّ رأسه احتجاجاً في تلك الحجرة المبنية بالإسمنت غير المسلّح والمصبوغة بلونٍ أبيض قدم عهده. كان جالساً على السجادة الداكنة الكثيرة الزخارف والمستقرة على بساط لامع يفرش الحجرة حتى الباب.

والله شيْ! والله طَرْطِرَة!

وأمام الأب الغاضب يجلس الابن في انكسار. وجهه أنحف، شعره شديد السواد، عيناه فيهما حدّةٌ لشدّة سوادهما، ومنكباه أقل عرضاً كمنكبيْ أيّ شابٍ في العشرين من عمره. التفت إليه والده بحنق:

وانت الحين ما لقيت إلا بنته، ما في غيرها في الديرة.

يبه هذا اللي صار، خلاص انسى كل شي، لا تضايق نفسك.

تخلي واحد مثله يردنا وعذره إن احنا مب أغنيا مثله، اش كان؟ ما تقول لي اش كان؟ ما يدري احنا من؟

يبه اللي ما يعرفك ما يثمنك.

والتفت الأب بغضب.

ما يعرفني؟ فيه أحّد في الدوحة ما يعرفني؟ ولا يعرف أبوي وجدودي؟ في أحّد ما يعرف ان احنا آصل ناس، وأحسن منه بعشرين مرة؟

صمت الابن معدوم الحيلة فعاد الأب يفرك يديه غيظاً وقهراً:

آه يا القهر، يا ليتني ما شَبَّرت حق بيته، النذل! اللي ما فيه مروَّة. يا ليتني طحت مريض اليوم ولا رحت له.

لم يحتمل راشد فغطى وجهه بكفّيه برهةً أخذ الأب خلالها يلهو بلحيته، ثم توقف:

اسمع يا راشد..

رفع راشد كفيه عن وجهه فرأى أصبع أبيه تمتد متوعدةً:

بالك تعارِف هالرجّال والا تشتغل معاه والا حتى تسلّم عليه.

آنا آعارفه بعد ما ردني؟ شتقول يا يبه!

اسمع يبه، آنا ابوك وأعرف منك. آعرف إن الزمن يدور واللي اليوم يتغلّى عليك يمكن باكر يجيك يتمسح فيك، لكن تحمّل تسامحه. اللي حقّرك وتكبّر عليك وانت أحسن منه ما يستاهل حتى تسلم عليه..

الدنيا بتدور يا راشد، وباكر يمكن يجيك هو والا احد من عياله يبي يتواصل معاك، لكن خلّك رجّال، وتذكر هذي الإهانة. تذكّر انه رد أبوك قدام رَبعه وهو أخس الرجاجيل، وما جمع فلوسه اللي يتفخّر بها إلا بالحرام.

يبه، لا تحاتي شي، صحيح انه بالع نص السوق واحنا تجار صغار، لكن حتى لو افتقرت لا تصدّق إني باحط يدي في يده في شغل.

لا في شغل ولا في غيره، فهمت؟

فهمت يبه.

شوف يا راشد، إن حطيت يدك في يده والا في يد أحد من طرفه آنا بري منك، ولا اسامحك.

تنهّد راشد واقترب منه والده وأمسك يده بكفّه المرتجفة غضباً:

شوف، مب آموت وتنسى كلامي! ترى باغضب عليك وآنا في قبري ليوم الدين.

قبل راشد رأس أبيه وطمأنه وأوصاه ثانية بألّا يقلق لأنه سينفذ وصيته التي تتّسق مع رغبته أيضاً، وأخذ الأب يذكّر ابنه بهذا الوعد كل عام حتى مات. ولم يمت قبل أن يغتني قليلاً، وأما الحمدان فقد تطورت تجارته أيضاً وظلت ثمة مسافةٍ ماليةٍ بين الأسرتين.

انزلق راشد مرة أخرى على السفح انزلاقةً طفيفةً لا تكاد تذكر ووصل إلى نقطةٍ أخرى. هناك رأى نيلة. ولكنها لم تكن تلك الجالسة على الكرسيِّ المتحرك، بل كانت فتاةً تتدفق صباً في الخامسة عشرة من عمرها. خداها مَرِحان تحت شمس الضحى وشعرها ضفيرةٌ سميكةٌ لامعةٌ لونُها كستنائيٌّ داكنٌ فوق بُخنقِها الأسود الساقط على كتفيها. كانت واقفةً مع أمها تستعرض ما لدى البائع المتجول من أمشاط ومرايا وملابس.. لم تلاحظ أو ربما لم تأبه للشاب الذي نظر إليها من بعيدٍ وأعجب بها في الحال، وقرر أن يمر من أمام بيتها كل يومٍ ليراها. ولكنه لم يرها ثانية. وسأل عنها وعرف اسمها واسم أهلها، وعندما يئس من رؤياها أخبر أباه برغبته في الزواج بها. كان في العشرين أو الواحدة والعشرين، أي مكتمل الرجوله آنذاك خاصة بعد أن بدأ يعمل مع أبيه في تجارته البسيطة. فانطلق الأب مع ابنه إلى بيت والدها منفوخ الصدر متسلحاً بأصله العريق وسمعته الرنانة كرجل يحبه كل الناس، لم يكن يعلم أن الأصل والفصل والسمعة

الطيبة لا تعني الكثير لدى بعض الناس، وأن النقود تصنع كثيراً من الفروق بين البشر وتغلّب كفة من يمتلكها. عرف هذه الأمور عندما خرج منتوف الريش متساقط العُرف داميه من بيت الحمدان.

وما العمل الآن؟

لو كان هو أب الولد وابن ذلك الرجل أب البنت لهان الأمر، لاستطاع أن يقبله لأنه سيكون بمثابة إصلاح خطأٍ قديم، رُفض رجل وقبل رجل من العائلة بدلاً منه. ولكن كيف يُرفض رجلنا لابنتهم ثم نقبل رجلهم لابنتنا وكأنّ رجالنا صعاليك أو كأن بناتنا أقل قيمة من بناتهم، شيءٌ صعب.. مستحيل...

كيف يهدرون كرامته وكرامة أبيه برفضهم السافر ويقدم لهم ابنته الوحيدة، حبيبته هند؟

ومسح راشد دمعةً لمعت في عينيه، إنه رجل مجروح، نعم، من قال إن الرجال لا ينجرحون..

ثم غضبة والده، ماذا يفعل بها؟ لا يستطيع أن يغضب أباه في قبره، أيضاً مستحيل.. ولكن هل يفعل ذلك براً بأبيه أم انتقاماً لنفسه؟

ولكن هل هذه حقاً نيلة الصبيّةُ الجميلةُ التي كانت واقفةً عند الباب أمام البائع المتجول مع أمها؟ هل أصبحت نيلة حقاً تلك المرأة الجالسة على ذلك الكرسي؟ مسكينة، حظها في الدنيا قليل، كانت آخر أخبارها لديه أنها تزوجت شاباً من معارف أبيها الأغنياء ثم تباعدت الأماكن وانقطعت الأخبار. وعاد لا يعلم شيئاً عنها ولا عن أهلها. ولكن بعد الخطبة وقبل أن يعلم أنها هيَ علم عن حظها القليل، لا ولدٌ كما

سمع ولا بنت، وحتى زوجها تزوج عليها -أيضاً كما سمع بعد خطبة ابنته لابن أخيها- بعد أن يئس من اقناعها بالسفر للعلاج..

ترى هل لاحظت وهي على ذلك الكرسيِّ أمام حجرة الاستقبال نظرته الفضولية التي مسحت وجهها مسحاً سريعاً بحثت خلاله عن الفتاة القديمة واستقصت ما تركه الزمن منها؟ اكتشف أنها لم تكن بدرَ الدُجى كما كان يتخيلها، بل إن مريم وقبلها أم فيصل أجمل منها، مريم بالذات أجمل منها بكثير الآن...

ثم لماذا بدا عليها البراءة عندما ألمح إليها بما فعله أبوها؟ تأكد أنها لم تكن تعلم بالأمر. لذلك لم يقل أحدٌ أيَّ شيءٍ في هذا الخصوص إذ هو في مأواه ينتظر أن يدور الكلام، ويفكر في الاستجابة المناسبة لمثل هذا الأمر إن أثير. ولكن لم يحدث شيء. لقد عرف في مجلسها ذاك أنها لم تعلم قط بأنه فكّر فيها في يوم من الأيام، أما شقيقها عليّ فكان أصغر من أن يعلم بالأمر إذ كان لا يتجاوز السادسة من عمره آنذاك. نعم، وضحت الرؤية، ذلك المتغطرس لم يخبر ابنته عنه وربما لم يخبر حتى زوجته، وكأن من خطب ابنته كان فأراً...

دخلت مريم إلى مخدعها وفوجئت بنظرة زوجها المليئة بالاهتمام، لم تُلق لها بالاً في البداية ولكنه ناداها وفي عينيه تلك النظرة الفضولية والمنجذبة التي لم ترها مذ وُلدت هند، فابتسمت نوعاً من الابتسام لم تبتسمه منذ ذلك الآن.

* * *

يتزايد الطرق على الباب. كان الطفل يدق الباب بيديه ثم أصبح يرفسه بقدمه. اختفى قليلاً ثم عاد يضربه بشيءٍ ثقيل،. لا خوفَ منه. عندما يكون حجم العدوّ صغيراً فلا

خوف منه بتاتاً. تستطيع أن تغنّي وتبني بيتك بأمانٍ ما دام حجم عدوك صغيراً، ثم أن الباب مغلق بالمفتاح...

توقف الخبط على الباب. وها هو السقف قد اكتمل. ما أجمل البيت الآن، لا تنقصه إلا الحديقة..

هنا قطعةٌ مستديرةٌ بها ثلاث زهراتٌ حمراء، وهنا أخرى بها ثلاث زهرات صفراء، وهذه واحدةٌ أخرى بيضاء مثل البيت. وهنا الشجرة الباسقة.. اكتملت الحديقة..

هكذا يكتمل البيت، أصبح لا ينقصه شيء. لا ينقصه إلا أن تراه أمي وكذلك أبي. إذا لم يرياه جميلاً فلن يكون جميلاً على الإطلاق..

حان وقت فتح الباب. يجب أن يؤخذ هذا البيت إلى أمي وأبي ليرياه جميلاً.

٢٦

وإلى غابات سِحْرٍ من حقول الياسمين

هند تقف دائماً عند المرور على وكر أبيها لتقول له:

السلام عليكم، "مسا الخير يبه" أو "صباح الخير يبه"، ويرد الأب:

"هلا يبه"، وتمضى الابنة في حال سبيلها. اليوم لم يردّ تحيتها. بدلاً من ذلك ناداها بيده. أجلسها إلى جانبه وسألها عن أحوالها في المدرسة، وتكلم عن أشياء متنوعة ثم قال بشيءٍ من الحرج:

آنا فكرت وايد في موضوعك...

أيْ موضوع يبه؟

إنتي عندك كم موضوع؟

وينخفض وجه هند المبتسم، نعم، ليس لها إلا موضوع واحد يستحق التفكير والمناقشة، كلّها آذان صاغية..

تبين الحقيقة، آنا يمكن غلطت.

أخيراً! غلطت؟ ما أجمل هذه الكلمة! لو طلبوا رأيها لتتويج كلمة ملكةً على الكلمات لكانت كلمة "غلطت" الخارجة من فم أبيها. "غلطت" كلمةٌ لا تقدّر بثمن، كلمةٌ انتظرتها حتى يئست من سماعها، وها هي تأتي بسرعة، أسرع مما تخيلت بعد أن يئست منها. في ماذا غلطت يا أبي العزيز؟

يمكن ما كان لازم أطلقك من مايد.. ما دام ما عرفت أصله وفصله من قبل ما في داعي أتصرف عقب ما عرفت.. عقب ما...

وخجل منها وصمت، وخجلت هي واحمرّ وجهها سروراً وابتهاجاً وهي تنتظر باقي الكلام..

يعني... عقب ما حبيناه وحبنا...

وتنهّد الوالد وصمت، وتمنت هند لو كان لوالدها زرّ يُمرِّر الأجزاء المملة ليصل إلى المواقف الأكثر أهمية كما في أجهزة الفيديو. وحاولت إغراءه بمواصلة الكلام بهزّ رأسها مؤيدةً، ولكنه واصل صمته واللعب بحبات مسباحه، لا عجلةَ على الإطلاق في الكلام. أحياناً تكفّ أصابعه عن اللهو بالخرز ويلتفت يمنةً ويسرةً وكأنه يبحث في الزوايا عن أنسب الكلمات وطرق التعبير، وتتابعه هي إلى أن يجد الكلمات:

آنا بصراحة ألحين لو رجع مستعد اقبله.. **لو** رجع، إحنا طبعاً ما يصير نكلمه، عيب... ويمكن احنا نتعرض للحرج لو كان غيّر رايه.. بس لو فكر يرجع هلا به...

ثم يرسل لها ابتسامةً أبويةً عذبه:

علشانك انتي بس.

شكراً يبه..بس قول لي، ليش تغيّرت عليه ورفضته والحين رضيت عليه؟

وتنهّد الأب:

فيه سالفة قديمة بين المرحوم أُبوي وجده، وابوي كان يحذّرني من.. من إني اتواصل معاه ومعَ أيْ أحّد من طرفه لحد ما مات، ويوم عرفت إن مايد ولد ولده خفت اكون عصيت أُبوي وعقّيته..

عشان هالسبب فرقت بينكم.. لكن من كم يوم سألت الشيخ في المسجد قال لي إني ما عقّيته لأني زوجتك ولد ولده قبل ما اعرف إنه من طرفه...

وصمت وقد بدا عليه الضيق، لا تسألي أسئلةً أخرى!

ولكن لا يهمها أن تعرف تفاصيل أخرى، المهم هو الرضا الذي يستحقّ أبوها المكافأة من أجله لأنه ملأ قلبها بالفرح. تمتمت شفتاها بكلماتِ شكرٍ سريعةٍ حاولت أن تفرغها من الانفعال الذي يعتريها وهي تنهض سريعا.. أين هذه الأم؟

وانتشر خبر العفو في المنزل، وسعد به الجميع حتى ماريّا التي أنهت مقاطعتها المعنوية للأب فوراً. ولكن ظلّ ماجد يوماً ونصف جاهلاً بالأمر. أمام التلفون عجزت هند تماماً عن الاتصال به، لقد أصبح طليقها ومن غير الجائز أن تتصل به، كما أنه ألمح إلى أنه قد لا يعود بعد الطلاق.. احتارت كيف تعلمه وخشِيَت من لحظة العلم بتغيّر موقفه لو كان قد تغير. ولكنه علم بالأمر، سرّبه إليه شخصان: المدير، ومراهقٌ في الخامسة عشر من العمر انطلق إلى النادي الذي كان يرى فيه سلفه أحياناً وسرّب إليه الخبر المسرّب أصلاً. وهنا يُعدّ ماجد لمشكلةٍ أخرى، كيف يواجه والده المجروح الشعور برغبته؟ بعد أن قبلت خديه ابتسمت له نيله ودعت له بكثيرٍ من الدعوات الصالحة وطلبت الهداية لأخيها الصغير ليلقى الأمر القبول لديه. ولكن ماجد كان يتوجّس

خيفةً، وفضل أن يتأكد قبل أن يخطو أيّ خطوة. لذلك فقد اتصل بوالد هند الذي استقبل صوته عبر التلفون بطريقته الاحتفالية المعهودة قبل التغيّر الأخير. أخبره أنه اتصل ليسأل عن صحته، ولمح راشد تلميحاً حذراً بأن موقفه تغير من رفض الزواج، فأخبره ماجد أنه يريد أن يعود إلى ابنته فرحب به وبأهله.

ثارت ثائرة عليّ ورفض رفضاً باتاً، وإذا ردّ ابنه ابنة ذلك الرجل فلا هو ولده ولا هو أبوه.. وكذلك ثارت ثائرة ماجد، ألا يعلمون أن تلك هي المرأة الوحيدة التي يريدها، هي الإنسان الوحيد الذي خرج به من قبر أخيه، ذلك القبر الذي ضم روحه عشر سنين؟ حسناً فلنعد ثانيةً إلى القبر وننتظر عشر سنين أخرى.

خرج ماجد مكفهراً من بيت والده وظلّ الأب مكفهراً بالداخل بينما الأم تبكي في غرفتها. لم يدريا قبلها بأبعاد مشكلة ابنهما، وصدمتهما الحقيقة إذ ألقى بها الإبن في وجهيهما. أما العمة فحالما استقبلت وجه ابن شقيقها المكفهر أعدت العدة لامتطاء كرسيّها المتحرك مرةً ثانيةً لتتوجه به إلى بيت أخيها. ولكن قبل أن يتم استعدادها فاجأها أخوها بزيارةٍ لابنه.

في الغرفة جلس ماجد القرفصاء يحسب الأمور، يعلم أنه لن يعود مرةً ثانيةً إلى ما تحت السطح بأي حال من الأحوال، ولكنه لا يطيق الانتظار أكثر من ذلك، فما هي الخطوة القادمة؟ هل يتمرّد؟ ولكنه يعلم أن والده في النهاية سيقبل الأمر، بيْد أنه أيضاً تعب من طول الإنتظار. كم شهراً آخر سينتظر يا ترى؟ ربما آن أوان اعترافٍ آخر.. وما إن يصل ماجد إلى هذه النقطة حتى ينفتح الباب ويدخل أبوه ويقف أمام سريره ويخبره بموافقته على العودة لزوجته على ألّا يرافقه إلى بيت ذلك الرجل، فيطير ماجد

فَرحاً إلى بيت حميه مع الأب الآخر، يوسف. في السيارة ينظر ماجد ليوسف الجالس إلى جواره ويضحك له، يشعر برغبةٍ في تقبيله ولكن لا مجال الآن، يكتفي بالابتسام وهو يعود بنظره إلى الشارع وكفّاه على المقود، يضحك في نفسه: حسناً، عرفنا كيف يستطيع الآخرون أن يعيشوا فرادى بلا توائم متطابقة، ولكن كيف يستطيعون أن يعيشوا بأبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ فقط؟

كان دخول ماجد بيت راشد كهطول أمطارٍ غزيرةٍ بعد طول جفاف، التفتّ حوله الأسرة كلها بما فيها فيصل ما عدا هند التي طلب ماجد أن يسلم عليها، ولم يرد له الأب طلبه، وفي الحال تلقّت الخبر وجاءت تمشى بحياءٍ وجلست في ركنٍ بعيدٍ بعد التحية القصيرة. وكما استوعب راشد ماجد من أول نظرة استوعب يوسف بعد دقائق من جلوسه معه. فرقٌ شاسعٌ بينه وبين عليّ.

ها، متى نروح المحكمة، باكر والا السبت الجاي؟

ليش المحكمة يبه يوسف؟

ما تبي ترد هند..؟

لا طبعاً.

ويصفرّ وجه يوسف ولولا أن فيصل بينه وبين ماجد للكزه لكزةً قوية، ويخفق قلب هند ويصمت الجميع وهم يتبادلون النظرات المتسائلة التي استقرّت جميعها على الشاب الوسيم ذي الوجه الباسم الذي دارت نظراته بين الحضور وكأنه مستمتعٌ بتلك الصدمة التي سببها لهم، وعندما استكفى قال:

آنا أصلا ما طلقتها.

واندهش الجميع ثانيةً، كيف حدث ذلك وقد أرسل إليهم ورقة المحكمة؟ ضحك ماجد وهو يخبرهم أنها مزورة ساعده في الحصول على الاستمارة صديقه المحامي، وأعدها أخوه إبراهيم.

يعني انتو بتروحون تدورون توقيع القاضي الحقيقي والا بتدققون على الاستمارة؟ احنا سويناها في البيت، وابراهيم أُخوي وقع جميع التوقيعات اللي فيها.

وتتشكك هند:

بس توقيعك موجود عليها، آنا اعرفه.

حتى توقيعي مزور، قلّده ابراهيم، آنا مغفل عشان أوقّع بنفسي على ورقة تفصلنا عن بعض؟ مستحيل أغامر هذه المغامرة، وللعلم حتى اسمي مكتوب غلط، ورقم البطاقة غلط لأن صديقي المحامي قال إن الكتابة يعني إقرار بالطلاق، لذلك، ابراهيم لعب بكل المعلومات وانتو ما حسيتوا بشي! فنان ابراهيم.

امتلأ يوسف فخراً وراشد غيظاً وانبرى أصغر الموجودين قائلاً:

أُخوك يزوّر، مايد؟

ما يعتبر تزوير يا سعد، وأصلا الورقة ما تشبه ورقة المحكمة الحقيقية، يعني المسألة كلها لعبة.

ويأتيه صوتٌ آخر: تلعب عليي يا مايد؟

لا يا بو فيصل، بس انت الله يهداك، كنت وايد صعب...

ويحاول راشد إخفاء الشعور بالهزيمة:

على كل حال، آنا مستانس لأنك حريص عليها، على الأقل هذا يطمّني على مستقبل بنتي معاك.

ورسمت هند النظرة المعاتبة:

يعني تكون زوجي طول الوقت يا مايد، ولا تسأل عني ولا مرة؟

هذا عقاب لك لأنك تخليتي عني بسهولة، وبعدين لو كلمتك كنت أكيد باعترف لك وانتي بتعترفين حق الوالد.

في نهاية الزيارة يتجه الجميع إلى الباب وتلتقط أذنا مريم جزءاً من حوار راشد مع ماجد وهو ممسكٌ بيده يماشيه وزوج عمته إلى الباب:

قول حق امك نيلة، ترى دخلَتها علينا عزيزة، وآنا رضيت علشانها.. لو اني قعدت افكّر مدة، لكني قدّرت دخلتها وفي الأخير وافقت عشانها.

ابتسمت مريم في نفسها، لقد قال لها إنه رضيَ من أجلها هي منذ بضعة أيام وهي تعلم أن دافعه الأكبر رغبته في إسعاد هند وحبه لماجد.. لو كان فقط يستطيع استثمار النقود كما يستثمر المواقف لكان أغنى الأغنياء!

في غرفتها أخرجت هند الكتالوجات مرةً ثانيةً ونثرتها حولها على السرير، الوقتُ ضيق، لم يبق لديها إلا شهر تستعد فيه لحفل زواجها. ولكنها تسرَح. ترتفع يدها بالكتالوج ببطءٍ نحو فمها حتى تستقر حافته عند شفتيها.. هناك مخاطبات كثيرةٌ بين الإنسان وقدره... يجب أن نفهم هذه المخاطبات ونفك الرموز، يجب أن نكون أكثر شفافية..

لو كنت أفهم الرموز لوفّرت على نفسي كثيراً من ألم الانتظار.. ولعلمت أن الأشياء لا تحدث عبثاً، ولا تحدث بالصدفة، أو أنها بالأحرى تحدث بترتيباتٍ وحساباتٍ قدريةٍ

معقدةٍ ودقيقةٍ لا ندركها ولكننا ندرك نتائجها فقط فنسميها "صدفة". وبسذاجةٍ نهزّ رؤوسنا عجباً ونقتنع أن ما حدث كان على الشَفا بينما هو في اللب، في قرارٍ مكين، أمكن بآلاف المرات من قرار الأحداث التي نصنعها ولا نسمّيها صدفةً، مع أنها أقرب إلى الشَفا لضعف الترتيبات التي خلفها والتي لا تنجح إلا إذا وافقها القدر..

يتراءى لها الدكتور عبد السميع أستاذ النقد أيام الجامعة وهو يمشي جيئةً وذهاباً أمام السبورة وقد أمسك كتاباً بيمينه التي أسندها خلف ظهره بشماله..

تتذكر تعابير وجهه التي استعان بها على توضيح فكرته، أو الفكرة التي قال بها أحدهم فآمن بها الجميع..

يلّوح بالكتاب:

"ما يضعف هذا العمل هو اعتماد الكاتب على الصدفة.. الدنيا لا تسير هكذا.."

تبتسم له.. لا يعلم أن العصافير تعشّ في المكيفات.

يعود الكتالوج إلى مكانه على السرير وتعود هند إلى ما هي فيه.. ماكياجها يجب أن يكون "أرضيا" لا يتصادم مع البيئة، يجب أن يبدو مظهرها كما عرفه ماجد وأحبه أول مرة، لن يستطيع القيام بذلك ومقاومة الأحمر الصارخ على الخدين إلا مدام غابوري خبيرة المكياج الفرنسية. في صالونها نظرت ماري غابوري بحيرةٍ إلى هند وهي تخبرها برغبتها، وضحكت سارة وهي تشرح لها وجهة نظر هند.

زوجها يحب الأرض!

تنظر بتمعّنٍ إلى وجه هند. لا يهمها ذوق زوجها. ويشرق وجهها فجأةً وهي ترفع شعر هند عالياً.

أتعلمين أن أنفك وزوايا عينيك تذكر بفينوس؟ هل تعرفين فينوس؟

طبعاً.

هل تريدين أن تشبهي فينوس؟ أستطيع إبراز ذلك.

طبعاً تريد ذلك، أعطيك موافقتها بدلاً منها.

حسنا ولكن سيقتضي ذلك أن نفتح الشعر قليلاً.

لا، لا أريد أن يمس شعري بالأصباغ.

انتهت البروفة، حددت هند كيف تحبُّ أن تبدو في زفافها. اختارت كل شيءٍ وهي تراه بعيني ماجد، ولم يكن لديها مانعٌ من التضحية بإعجاب جميع المدعوين، لأنها لشخصٍ واحد فقط.

زُيّنت أشجار الحديقة بالمصابيح الملونة وأصبحت الحديقة مكاناً ساحراً ازدحم بالمدعوات اللاتي جلسن على المناضد المستديرة يستمعن للموسيقى المنبعثة من الداخل. وفي غرفتها أخذت هند تستكمل زينتها مع مدام غابوري، ثم ارتدت ثوبها الأخضر بلون الحشائش الجديدة في أول درجات اخضرارها والمزين بالأزهار الحليبية والوردية بلون الأحلام الهادئة، وفوق رأسها إكليل الأزهار الصغيرة بالألوان نفسها التي طالما جرت بها في المروج المزدهرة بين قطعان الغزلان.

دخلت عليها الأم تستعجلها فوجمت وشعرت بالقلق، عروسٌ وجهها ليس في حمرة الطماطم؟ وعيناها ليستا في حدّة عين الصقر؟ كل شيءٍ مهذّب وكل شيءٍ مشذب. بعد قليلٍ من التأمّل أحسّت أن ابنتها تسحر الألباب، فمسحت دمعةً من عينها

وابتسمت، إنك في منتهى الجمال يا حبيبتي، من قال إن العروس يجب أن تكون فاقعة الألوان.

سارت معها سارة حتى وصلت إلى مكان الاحتفال، هناك عزفت موسيقاها الخاصة، معزوفة سعد التي ينساب منها الشلال ثم تتطاير منها ألف فراشةٍ في كلّ اتجاه، وهناك بكت سارة تأثّراً، ومن بعيدٍ وفوق كرسيّها المتحرك بكت نيلة وبكت معها زبيدة. أما هند فكانت تتساءل، هل ستعجبه مفاجأتها؟ هل سيحب ثوبها الأخضر بأزهاره وجمالها الذي لا يأتي من كوكب آخر؟

بالأمس كانت ترى الكون بين يديها وهي مستلقيةٌ على سريرها، كان النور مطفأ في غرفتها وكان الكون الذي تراه من أسفل ساعدها الموضوع على عينيها يبدو خلاباً تحت الضوء الذي يأتي من النافذة، وكان يوم جمعة وكان في ذهنها قصيدة..

هكذا عدت إليّ

هكذا أبصرتك ماثلاً بين يديّ

هكذا عدتَ بشوقٍ

وبحبٍ وحنين

هكذا عدتَ بلهفٍ

وبشدوٍ ورنين

عدتَ تأخذُ بيديَّ

عبر بحرٍ من أنين

وإلى غاباتِ سحرٍ

من حقول الياسمين

من ورودٍ وزهرٍ

وطيورٍ هائمين

وإلى أزمانِ فجرٍ

وغناءٍ وسرور

وإلى جوٍ شذيٍّ

من أريجٍ وعطور

عدت ترفو أحلامي

بخيطٍ من حرير

عدتَ تصبُغُ أيامي

بلونِ حبور

هكذا عدتَ وعادت حياتي

وبذا عدتُ أحيا ذكرياتي

وهناك، في غرفته، ألقى ماجد بالفوطة التي كان ينشّف بها شعره المقصوص والمشذب، وأخذ يجفف شعره بالمجفف الكهربائي وهو يتبسم للمرآة. كان يرى فيها وجه هند..

قادمٌ إليك يا هند..

تسع دقائق – أو خمس عشرة دقيقة إذا كانت الطريق مزدحمة– وأكون معك.. سأحتويك، سأعوضك وأعوض نفسي عن كلّ لحظة ألم، سأكافئ حبّك البريء وغير

المشروط لي.. حبك البريء الذي صادف تربةً طيبةً خصبةً فنمى بستاناً مليئاً بأشجارٍ وارفة الظلال أورقت وطاب جناها..

هنيئاً لنا هذا البستان بأشجاره العظيمة التي سنتفيأ ظلالها ونقتات من ثمارها الحلوة ما حيينا.

أخذ ابراهيم يطرق على أخيه الباب ثم فتحه ودخل فوجده يتعطّر ويرتدي البشت. إنها المرحلة الأخيرة، طلب إليه أخوه أن ينظر من النافذة، فرأى عشرةً من أصدقائه وأصدقاء أخيه ينتظرون.

بتسويها؟ ما قلت لك إني ما احب تلويث البيئة بالأصوات اللي مالها داعي؟

آسف، مضطر، انت بتتزوج كم مرة!

ابتسم ماجد وهو يحيّي الشباب المنتظرين، وانطلق صوت ديكٍ من سيارة أحد أصدقاء أخيه، لا! والديك أيضاً؟ نظر ثانيةً إلى الأسفل فحيّاه صديق أخيه بيده تحيةً إضافية وأطلق بوق السيارة الديكي مرة أخرى. صوتٌ مضحكٌ ولكن لا بأس. إنها الليلة الوحيدة التي لن يرفض فيها شيئاً. بل سيركب سيارته الجديدة الزرقاء بلون السماء – زرقاء لأنه يريد مفاجأة هند بلونها المفضل في السيارات– وسينطلق هو وتلك الشرذمة التي جاءت تزفّه بأيّ طريقة شاءت.

خرج أخوه والتفت هو إلى أخيه الآخر، إلى الفتى الممسك بالكرة والمبتسم على جدار غرفته. ابتسم له وشعر أن ابتسامته في الصورة تزداد إشراقاً ومرحاً..

أنت سعيدٌ بي. أعرف ذلك لأنني دائماً أحزن لشخصين وأفرح لشخصين. فرحتي الكبيرة هذه لا يمكن أن تكون لي وحدي. أعرف أنك فرحانٌ وتكاد تطير فرحاً..

لن آخذك معي هذه المرة ولكنك ستظل في قلبي دائماً، وسيكون اسمك اسم أول ولد أُرزقه..

مر بيده على اليد الموضوعة على الكرة الكبيرة في الصورة وهو يبتسم للوجه ذي الابتسامة المشرقة.

إلى اللقاء يا أحمد.

ثم أطل من النافذة الأخرى، إلى المساحة الخضراء التي زرعها الأطفال، الحِيّة الكبيرة التي أنقذها من الموت ووضع لها نهايةً سعيدة. أكسبه منظر الخضرة شعوراً غامراً بالسعادة والتفاؤل بالمستقبل، تأمّله فعاد إليه ذلك المشهد الأسطوريّ، عاد إليه طيف الأطفال، وعادت إليه أصواتهم وهم يؤرجحون سلالهم الصغيرة ويغنون للحِيّة تحت ضوء القمر الخافت قبل أن يكتسي التراب بالخضرة والإشراق والأمل. احتوى كل ذلك وانطلق به إلى هند.

٢٧

تأتي الطفلة تحمل بيتها الجميل الذي انتهت لتوها من صنعه.

يمه، يمه.

تتلفّت الطفلة حائرة، أين ذهبت أمها؟ لا شيء إلا الجدران التي على أحدها رزنامة كتب عليها: الاثنين ٢٥ ابريل ٢٠٠٤، ولا شيء آخر. تنادي ثانية، فيأتي صوت هند:

عايدة، آنا في المجلس.

تجري الطفلة إلى المجلس. هناك أبوها أيضاً، تعرض عليهما بيتها وتستمتع بسماع عبارات الإعجاب الشديد من هند وماجد. وفجأة يأتي الشيطان الصغير ذي الثلاثة أعوام والذي يريد جذب انتباه أخته الكبيرة مهما كلف الأمر. ينطلق نحوها كالسهم ويخبط بيتها الجميل بكلتيْ يديه وبكل قوته فيقع ويتكسر. بعض الناس لا يستمتعون إلا بالهدم..

وتهم عايدة بالبكاء ولكن الموقف كلّه موقفٌ ضاحكٌ بدأه الصغير أحمد بضحكته الكيانية الطفولية المرحة، ثم هند وماجد اللذان تنجح ضحكته دائماً في إضحاكهما، فلا تجد بداً من إرجاء البكاء والمشاركة في الضحك الجماعي.

فجأة تتوقف هند وتستبدل القهقهة بابتسامة تعلوها دهشة:

مايد، تصدّق إني شفت هالمشهد من زمان؟ من ثمان تسع سنين.

ماجد يصدق كل شيء، يؤمن بإمكانية حدوث أيّ شيء..أيّ شيء في هذا المهرجان الدائم.. مهرجان الأيام والليالي.

إصدارات للمؤلفة:

١- إنسان في حيز الوجود.....................(مجموعة مسرحية)

٢- أسطورة الإنسان والبحيرة..........................(رواية)

٣- أشجار البراري البعيدة............................(رواية)

٤- من البحّار القديم إليك.......؟......................(رواية)

٥- دنيانا... مهرجان الأيام والليالي........................(رواية)

٦- أنا الياسمينة البيضاء.......................(قصص قصيرة)

٧- التفاحة تصرخ... الخبز يتعرى................(مجموعة مسرحية)

٨- عوالم صغيرة..............................(حكايات)

٩- الخيل وفضاءات البنفسج.......................(قصص قصيرة)

ترجم منها إلى لغات أخرى:

١- دنيانا... مهرجان الأيام والليالي (إلى اللغة الإنجليزية)

٢- أسطورة الإنسان والبحيرة (إلى اللغة الفرنسية)

٣- أنا الياسمينة البيضاء (اللغة الإيطالية)

كنت آمل أن تلفت ***دنيانا*** نظر إحدى المؤسسات المهتمة بالبيئة لتحاول إعادة زهرة البراري الأليفةً - كما أسميتها على لسان بطلي ماجد- إلى التراب القطري بعد أن اختفت منه، ولكنها لم تفعل.. في طبعتها الأولى، فهل تفعل الآن؟ هل تمتد يدٌ خضراء تتمتع بشيءٍ من إليه الصلاحية إلى التراب القطري لتعيد "زهرة البراري الأليفة" التي علمت فيما بعد أنها ما تزال تغطي مساحات شاسعة في النمسا وربما غيرها من الدول الأوروبية وبلاد الشام، كما قد علمت أيضاَ؟ إنها قريبة جداً، فهل يتاح لذاكرة الأجيال القادمة أن تختزن شذا هذه الزهرة الآسر كما اختزنته ذاكرتي

المؤلفة